

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة مولود معمري - تيزي وزو -

كلية الآداب و اللغات

قسم الأدب العربي

التخصص : لغة وأدب عربي

الفرع: نقد وبلاغة

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

الطالب: صالح المغرة

الحجاج في كتب الردود النقدية
الفلك الدائر على المثل السائر - أنموذجا -

لجنة المناقشة:

د/ مصطفى درواش أستاذ التعليم العالي بجامعة مولود معمري - تيزي وزو - - - رئيسا.

د/أمنة بلعلى أستاذة التعليم العالي بجامعة مولود معمري - تيزي وزو - - مشرفا و مقرا.

د/ بوجمعة شتوان أستاذ محاضر "أ" بجامعة مولود معمري - تيزي وزو - - - - ممتحنا.

د/ ذهبية حمو الحاج أستاذة محاضرة "أ" بجامعة مولود معمري - تيزي وزو - - - - ممتحنا.

تاريخ المناقشة: 2012/03/15



إلى الوالدين الكريمين أطال الله عمرهما .

زوجتي و أبنائي .

وإلى كلّ الأهل والأصدقاء .

فهرس الموضوعات

3	مقدمة
7	الفصل الأول: منطق الحجاج والتخاطب
8	المبحث الأول: الحجاج.....
8	مفهوم الحجاج وأصنافه
11	ضوابط التداول الحجاجي وتقنياته.....
12	طبيعة الخطاب الحجاجي ومجالاته.....
22	المبحث الثاني:العلاقة التخاطبية واستراتيجياتها
22	العلاقة التخاطبية.....
27	استراتيجيات التخاطب
36	الفصل الثاني : آليات الحجاج في الفلك الدائر على المثل السائر.....
37	المبحث الأول: وسائل الإقناع البلاغية
38	الخلفية المعرفية والثقافية
56	القدرة على الاستدلال
64	أهمية المقدرة الفنية في الكتابة
73	المبحث الثاني:آليات الحجاج اللغوية.....
73	الروابط الحجاجية
85	العوامل الحجاجية
87	السلم الحجاجي
93	أفعال الكلام
100	خاتمة
103	قائمة المصادر و المراجع

مقدمة

أولى الباحثون (علماء الكلام ، الفلاسفة) الخطاب بشقيه الشفوي والمكتوب، أهميّة كبيرة قديماً و حديثاً، وخصوصاً الخطاب الحجاجي المتضمّن وسائل الإثارة والإقناع والتحاوّر التي توصل الأفكار وتحقّق المقاصد بين المتكلّم و المتلقّي. فمنهم من يرى أن جذور الخطاب الحجاجي ممتدّة إلى الحضارة اليونانية (أرسطو بالتّحديد) حيث كان الجدل فناً قائماً بذاته .بينما يرى آخرون أنه تيار حديث في الأدبيات اللسانية يقدّم تصوراً جديداً للمعنى من حيث طبيعته ومجاله. و نجد هذا النوع من الخطاب الحجاجي في مصنّفات تراثية عربية و دراسات تطبيقية ككتب العقائد والأصول والتفاسير والخطب والمناظرات ...فالحجاج سمة أيّ خطاب.

لهذه الأسباب وغيرها رغبت في دراسة هذا الموضوع (الخطاب الحجاجي) لتعريفه وبيان أهمّ سماته و تحديد أنواعه وطبيعته وآلياته بمنظور حديثي . قصد بيان الرّكيزة المعتمدة في الرّدود النقدية ومعرفة مدى ارتفاع هذه النصوص (النقدية) إلى مستوى الخطاب الحجاجي.

فاخترت كتاب الفلك الدائر على المثل السائر أ نموذجاً تطبيقياً للأسباب الآتية :
* ارتباطه الوثيق بكتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، الذي يعدّ نقداً لسابقه و معاصريه من البلغاء .

* المعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب فابن الأثير وابن أبي حديد عاشا في فترة زمنية متقاربة وفي بلد واحد (العراق) وكلاهما أديب وشاعر و فقيه، كما اشتغلا بالدواوين (1).

* أهميّة الكتاب إذ يعدّ توسعةً لمجالي النّقد والبلاغة .

وكانت هذه الأسباب الممهّدة لتطبيق منهج المناظرة بتوظيف بعض ما توصل إليه البحث التداولي الحديث في دراسته لمختلف الخطابات ، من مفاهيم وقوانين كمبدأ

¹ (1) ينظر عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، دار العلم للملايين، بيروت، ج3، ط2، 1984، ص 535- 579 .

التعاون ل « Gris » و نظرية أفعال الكلام ل « Austin » و « Searle » ، ونظرية السلام الحجاجية ل « Ducrot » . وساعدني على تطبيقها العديد من الكتب أهمها:

- استراتيجيات الخطاب : لعبد الهادي بن ظافر الشهري .

- اللّغة والحجاج لأبي بكر العزاوي.

- اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي: لطفه عبد الرحمان .

بالإضافة إلى كتب أخرى لا نقل أهميّة، وعليه قسّمت بحثي إلى فصلين بعد المقدمة فحاولت في الفصل الأوّل المعنون " منطق الحجاج والتخاطب " الإلمام بمفهوم الحجاج لغة واصطلاحاً وبيان سماته وضوابطه وطبيعته ومجالاته، ثمّ حدّدت مفهوم النّقض والمناظرة مع بيان قوانينها، بعدها درست العلاقة التخاطبية ونوعية المخاطب مبيناً كيفية تكوثر الخطاب في المناظرة، وذلك من خلال مدوّنة الفلك الدائر على المثل السائر .

أما الفصل الثاني الذي عنونته ب " آليات الحجاج في " الفلك الدائر على المثل السائر " فقد خصّصت المبحث الأوّل منه لتطبيق آليات الحجاج البلاغي مستعينا بنصوص من المدوّنة. والمبحث الثاني المعنون ب: آليات الحجاج اللّغويّة طبّقت فيه آليات الحجاج اللّغوية على نماذج من الكتاب موضوع الدراسة كذلك وختمت بحثي بعرض أهمّ النّتائج التي توصلت إليها .

أخذ البحث منّي جهداً ووقفاً نتيجة الصعوبات الأولى التي تواجه كل باحث أهمّها تشعّب الموضوع وصعوبة الإحاطة به، وقلة المراجع المتخصّصة فيه، والموجودة منها تكمن صعوبتها في طريقة الطرح، فهناك اختلاف وتباين من باحث لآخر و عدم اتّفاق حتّى في المصطلحات (قد يعود إلى الترجمة) ممّا يعيق صياغة مفاهيم محدّدة و قواعد ثابتة .

و في الختام أتقدّم بأسمى عبارات الشكر والتقدير والعرفان لأستاذتي المشرفة " آمنه بلعلی " على نصائحها القيّمة و توجيهاتها و صبرها .

كما أشكر قسم الأدب العربي بجامعة تيزي وزو، وكلّ من ساهم في إنجاز هذا البحث من قريب أو بعيد .

واللجنة المناقشة مشكورة جزيل الشكر على قراءتها المذكرة وما ستقدّمه من ملاحظات قيّمة تكون مصدر إثراء عملي، والله نسأل السّداد والتوفيق .

تيزي وزو في 20 /10 /2011 .

الفصل الأول

منطق الحجاج و التخابط.

المبحث الأول :الحجاج .

- مفهوم الحجاج وأصنافه.

- ضوابط التداول الحجاجي وتقنياته.

- طبيعة الحجاج ومجالاته.

المبحث الثاني:العلاقة التخابطية واستراتيجياتها.

- العلاقة التخابطية.

- استراتيجيات التخابط .

الحجاج بقدر ما هو مألوف كتمارسة، وحاضر في أنشطتنا اليومية، بقدر ما هو منفلت ومستعص على الإحاطة والتعريف، إذ نصادفه في الحوارات بين الأشخاص، وعلى صفحات الجرائد، وفي البرامج والمواد الإذاعية و التلفزيونية، وننلمسه في النصوص والعروض الإشهارية وفي اليوميات المتخصصة. بل إننا في لحظات مختلفة وظروف متباينة، نلجأ إلى الحجاج لندافع عن قضية أو نبرر سلوكا، لنذم أو نمدح، لنقف مع أو ضد اختيار أو قرار ونكون أيضا هدفا لحجاج الآخر في نفس السياقات وحول نفس المواقف. ومع ذلك فالحجاج كطبيعة وعلاقات وشروط وآليات اشتغال يكاد يكون مجهولا⁽¹⁾.

و هذا ما تجسده الردود النقدية، فالردّ عادة يتمّ باشتغال موضوع على موضوع آخر بني على موضوع سابق أو ما نسميه بنقد النقد. حيث أنّ ناقدا ما ينتقد عمل (إبداع) غيره، فيردّ عليه صاحب العمل المنتقد أو غيره، مثلما حدث في مدوّنتنا موضوع الدراسة (الفلك الدائر على المثل السائر) فصاحب (ابن الأثير) كتاب "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر" انتقد سابقه و معاصريه، وابن أبي حديد ردّ عليه بكتابه (الفلك الدائر على المثل السائر) و طبيعة الردود تقتضي الحجاج. إذ أنّ صاحب الردّ يتتبع أقوال المخاطب (المتكلم) فيفهمها أو لا ثمّ يؤولها و يحدّد مواضع الخطأ و يقومها أو يعترض على ما جاء فيها....

المبحث الأول: الحجاج

1 - مفهوم الحجاج و أصنافه :

الحجاج لغة: أشار ابن منظور في لسان العرب إلى الحجاج فقال: "الحجّة: البرهان، وقيل ما دوفع به الخصم. وقال الأزهري: الحجّة، الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل محجاج أي جدل. والتجاج: التخاصم.... والحجّة: الدليل (2). وقال الجرجاني: "الحجّة ما دلّ به على صحّة الدعوى، وقيل الحجّة والدليل واحد" (3). فأساس الحجاج هاهنا هو التركيز

(1) محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية و المنطقية و اللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1 2005، ص 7 .

(2) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور، لسان العرب، ط3، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، 2004 ص 339 .

(3) الشريف بن علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق، إبراهيم الأبياري، دار الريان للتراث، دط، دت، ص 482 .

على دليل لإثبات قضية معينة، أو بناء موقف من المواقف المعينة. وفي اللغة الفرنسية لفظه "argument" تشير إلى عدة معانٍ متقاربة أبرزها حسب قاموس روبرت "le Robert": القيام باستعمال الحجج وكذلك هو مجموعة من الحجج تستهدف تحقيق نتيجة واحدة. وهو كذلك فنّ استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة. ونجد "argument" تشير إلى الدفاع عن اعتراض بواسطة حجج. (1) وجاء في قاموس كامبردج "kambridge" أن الحجج هو الحجّة التي تُعلّل أو تُبرّر مساندة أو معارضة لفكرة ما. (2) من خلال هذه التّحديدات المعجمية لمصطلح الحجج، نتبيّن اختلاف دلالاته، فقد ورد بمعنى الجدال، أو الدفاع أو الاعتراض.

أمّا اصطلاحاً: فقد عرفه كلا من بيرلمان و تيتكا في مؤلفهما المشترك: "Traite de l'argumentation". - مصنّف في الحجج الذي ظهر باسم "La nouvelle rethorique". - الخطابية الجديدة - بقولهما "موضوع الحجج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم" (3). وقد حدّد غاية الحجج بقولهما "تهدف نظرية الحجج إلى دراسة التقنيات الخطابية الهادفة إلى إثارة الأذهان وإدماجها في الأطروحة المقدّمة وتفحص أيضاً شروط انطلاق الحجج أو نموّه وما ينتج عنها من آثار" (4). أمّا - ديكرو وأنسكومبر - في مؤلفهما "الحجاج في اللغة" فيقرّان بأنّ الحجج متجذّر في اللغة أي أنه لا يمكن فصل اللغة عن الحجج والعكس صحيح إذ يقولان في هذا الصّدّد "إنّ الحجج يكون بتقديم المتكلم قولاً ق1". أو مجموعة من الأقوال - يفضي إلى التسليم بقول آخر ق 2 - أو مجموعة من الأقوال" (5). والحجاج عند - ميشال مايير - هو "دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام

(1) Le Grand Robert dictionnaire de la langue française . 1ère rédaction . paris . 1989 . p 535 .

(2) Cambridge Advanced Learners : dictionary , Cambridge University Press , 2nd Pub ; 2004 , p 56 .

(3) عبد الله صولة : الحجج أطره و منطلقاته من خلال مصنّف في الحجج، الخطابية الجديدة لبيرلمان و تيتكا، ص 299 ورد ضمن أهم نظريات الحجج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم .

(4) محمد طروس، النظرية الحجاجية، م ن، ص 44 .

(5) عبد الله صولة، الحجج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، 2007، ص 33.

وضمنيه"⁽¹⁾. فالحجاج عنده يقوم على الصريح والضمني، وأهم ما رصده في العملية الحجاجية هو ربطه نظرية الحجاج بنظرية المساءلة "فالحجة عنده جواب أو وجهة نظر يُجيب عن مقدّر يستنتجه المتلقي ضمنيا من ذلك الجواب، أو يمكن القول أنّ الحجة جواب لسؤال ضمنى يُستخرج من الجواب نفسه"⁽²⁾. ويرى أبو بكر العزاوي في كتابه- اللغة والحجاج- أنّ "الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، ويتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، أي في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها"⁽³⁾. وقد عرفه طه عبد الرحمان في كتابه- اللسان والميزان- انطلاقا من مبدئين أساسيين هما "قصد الادعاء" و"قصد الاعتراض" إذ يقول: حدّ الحجاج أنه كلّ منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"⁽⁴⁾. من هذا التعريف يتبيّن أنّ الحجاج صنفان هما :

- 1 - حجاج توجيهي: يكون بإقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه (الانشغال بإيصال الحجة للمتلقي).
- 2- حجاج تقويمي: يكون بإثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدلّ على أن يجرّد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعترض. (لا يكتفي بفعل الإلقاء بل يتعدّاه إلى فعل التلقي). (5) فما ميزة الحجاج ؟

مميّزات الحجاج: للحجاج مميّزات تمكّنه من التواجد في معظم الخطابات نذكر منها :

- 1 - يتوجّه إلى مستمع (متلق) .
- 2 - يعبّر عنه بلغة طبيعية .
- 3 - مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية (هذا فرق بينه و بين البرهان الذي تدخل نتائجه في المقدّمة).

(1) عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن الكريم، المرجع نفسه ، ص 37 .

(2) ينظر المرجع نفسه، ص 38 .

(3) أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج ، العمدة في الطبع ، ط1 ، 2006 ، ص 16 .

(4) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1998، ص 226

(5) المرجع نفسه، ص 228 .

4 - لا يفتقر تقدّمه (تناميه) إلى ضرورة منطقيّة بمعنى الكلمة .

5 - ليست نتائجه (خلاصاته ملزمة) (قابلة للدحض) .⁽¹⁾

إن كانت هذه مميّزات الحجاج فما ضوابطه و ما هي تقنياته ؟

ضوابط التّداول الحجاجي و تقنياته : للحجاج ضوابط وتقنيات عديدة أهمّها.

1- أن يكون الحجاج ضمن إطار الثوابت (الدينية والعرفية). فليس كلّ شيء قابل للنقاش وللحجاج .

2 - أن تكون دلالة الألفاظ محدّدة، والمرجع الذي يحيل عليه الخطاب محدّداً، لئلاّ ينشأ من عدم التدقيق مشكلة في تأويل المصطلحات.

3- ألاّ يقع المرسل في التناقض بقوله أو بفعله.

4- موافقة الحجاج لما يقبله العقل، وإلاّ بدأ زيف الخطاب ووهن الحجّة.

5- توفرّ المعارف المشتركة بين طرفي الخطاب، ممّا يسوّغ قبول المرسل إليه لحجج المرسل، أو إمكانية مناقشتها أو تنفيذها، وإلاّ انقطع الحجاج بينهما وتوقفت عملية الفهم والإفهام، بل الإقناع.

6- أن يأخذ المرسل في اعتباره تكوين صورة عن المرسل إليه، أقرب ما تكون إلى الواقع قدر الإمكان. (طبيعة المرسل إليه الذهنية) .

7 - مناسبة الخطاب الحجاجي للسياق العام، لأنّه الكفيل بتسوية الحجج الواردة في الخطاب من عدمها. (مناسبة المقام المقال) .

8 - ضرورة خلوّ الحجاج من الإبهام والمغالطة و الابتعاد عنهما .

9- امتلاك المرسل ثقافة واسعة، خصوصاً ما يتعلّق بالمجال الذي يدور ضمنه الحجاج كالمجال السياسي⁽¹⁾. إذا ضبط النصّ الحجاجي بهذه الخصائص فما الأدوات التي يتوسّل بها ليكون مؤثراً و مقنعا ؟

(1) محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2005، ص 22:

تقنيات الحجاج : و نعني بها الوسائل الحجاجية و يمكن تقسيمها إلى :

- 1 - الأدوات اللغوية الصّرفة :مثل، ألفاظ التعليل (المفعول لأجله، كلمة السبب، لأنّ، كي) بما فيها الوصل السببي (تتابع جمل كلّ منها سبب لما بعدها) والتركيب الشرطي(إذا حدث..كان). والأفعال اللغوية(كالاستفهام)، والحجاج بالتبادل(مثلا:عامل الناس كما تحبّ أن يعاملونك) .
- 2 -الآليات شبه البلاغيّة: كالتفريع(تقسيم الكلّ إلىأجزائه)، والاستعارة، البديع والتمثيل(تمثيل صورة بأخرى) .

3- الآليات شبه المنطقية: كالروابط الحجاجية (لكن، حتّى، فضلا عن، ليس كذا فحسب) وأدوات التوكيد(إنّ، أنّ)، ودرجات التوكيد (ثلاثة طبقا لثلاث سياقات كما صنّفها السكاكي: الخبر الابتدائي - الخبر الطلبي -الخبر الإنكاري)، والإحصاءات، وبعض الصيغ الصّرفية كصيغ المبالغة مثلا، والتعدية بأفعل التفضيل.

3 - طبيعة الخطاب الحجاجي و مجالاته :

ليس كلّ خطاب حجاجيا، فقد تكون نهاية خطاب ما ذاتية دون أن تهدف إلى إقناع أو تأثير في المتلقي ممّا يعني أنّ هدف الخطاب ليس الحجاج، رغم ورود بعض التعبيرات الحجاجية بشكل عرضي، لكنّها لا تعدّ حججا، لأنّها لا تهدف إلى الاستدلال على موقف أو الدّفاع عن أطروحة مثلا. ولكي نفرّق بين الخطاب الحجاجي و غيره من الخطابات الأخرى يجب تحديد طبيعته (التي تميّزه عن باقي الخطابات). و من طبيعة الخطاب الحجاجي ما يأتي :

أ - البناء و الدينامية:

لا يوجد حجاج جاهز أو معطى من البداية لأنّه عملية يتمّ بناؤها تدريجيا و تتطلب تكيّفا مستديما من عناصرها إلى نهاية إتمام الحجاج سواء على شكل خطاب أو عرض خطبة أو جدال. فابن أبي حديد في كتابه الفلك الدائر على المثل السائر بدأ بقراءة أقوال مناظره(ابن الأثير) و فهمها (تأويلها) ثمّ عمد إلى تتبّعها و نقضها إذ كان يبني خطابه المضاد

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة 2004، ص 465 - 466 - 467 - 468 بتصرف.

انطلاقاً من خطاب ابن الأثير. و كثيراً ما تكون حججه مبنية على حجج خصمه إذ يعد النص الأوّل الموجّه للنص الثاني المضاد. كما أنّ العملية الحجاجية تنطلق من أسس و قواعد ترتبط بميدان اللّغة و علاقتها بالإنسان و العالم عبر التقنيات التي تبلور تلك الأفكار و العلاقات المتعلقة بمنطق الحياة بمختلف مجالاتها و قطاعاتها أو بمنطق اللّغة و منطق العقل. وهذا ما يجعل فاعلية الخطاب الحجاجي تأتي من طريقة بنائه و تفاعل عناصره ودينامية مكوناته. إذ أنّ ابن أبي حديد في مناقضته ينطلق من قواعد لغوية متعارف عليها ثمّ يكتفيها حسب الموقف المراد التعبير عنه لتكون النتيجة لصالحه مستغلاً في ذلك ثقافته الواسعة. ففي قضية الحقيقة و المجاز، يرى ابن الأثير "أنّ لكلّ مجاز حقيقة و ليس العكس ضرورياً فمن الأسماء ما لا مجاز له كأسماء الأعلام التي وضعت للفرق بين الدّوات لا للفرق بين الصفات".⁽¹⁾ ينطلق ابن أبي حديد في ردّه من أسس لغوية. فيرى "أنّ أسماء الأعلام ليست حقائق في الأشخاص المسمّين بها (فالرجل توهم)، لأنّ الحقيقة ما أفيد به ما وضع له (أهل اللّغة وأرباب الاصطلاح) فتكون اللفظة حقيقة تبعا لكونها موضوعاً لشيء قبل استعمال المستعمل، وهذا ينفي دخول الحقيقة و المجاز في أسماء الأعلام"⁽²⁾.

ب - التفاعل (تزاوج) :

الاختلاف في الرأي سبب الدخول في ممارسة الحجاج، إذ أنّ أغلب ما أورده ابن الأثير في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر" من انتقادات و آراء لم يكن مقنعاً بالنسبة لابن أبي حديد الذي أعلن ذلك صراحة في مقدمة كتابه "الفلك الدائر على المثل السائر" حيث قال: "وقفت على كتاب نصير الدّين بن محمد الموصليّ المعروف بابن أثير الجزيرة المسمّى "كتاب المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر" فوجدت فيه المحمود و المقبول و المردود

(1) ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، قدّم له وحقّقه وعلّق عليه أحمد الحوفي وبدوئي طبانة دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ج1، ص88.

(2) ابن أبي حديد، الفلك الدائر على المثل السائر، حقّقه وعلّق عليه أحمد الكوفي وبدوئي طبانة- دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ص85.

و المرذول . أمّا المحمود فإنشاؤه و صناعته، فإنه لا بأس به إلا في الأقلّ النادر . وأمّا المرذود فنظره و جدله و احتجاجه و اعتراضه، فإنه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغلب بما يلتفت إليه ممّا يعتمد عليه⁽¹⁾ . فما ذكر في المثل السائر كان (معظمه) مخالفا للخلفية المعرفية لابن أبي حديد ممّا دفعه إلى الردّ بغية تصويب و تقويم تلك الآراء لذا يحتاج كل من المتكلم و المستمع إلى تحقيق نوع من التّزواج في نفسه و صلته حتى نهاية التّخاطب الاتفاق بينهما . و المقصود بتزواج المتكلم هو الانشقاق الاعتباري لذات المتكلم إلى شقين أو بالأحرى إلى ذاتين إحداهما ظاهرة تستقلّ بمبادرة الادّعاء و الذات الثانية باطنة تشترك مع ذات المستمع في ممارسة الاعتراض، لأنّ المتكلم قد يتعاطى و لو ذهنيا على الأقلّ تصوّر مواطن النقد في الدعوى و تقدير مختلف الأسئلة التي يجوز أن يوجّهها المستمع إليها.⁽²⁾ وينشأ عن تعدّد الذوات الاعتبارية للمتكلم و المستمع أو (التزواج الاعتباري لذات المتكلم و ذات المستمع) ازدواج في مختلف أركان التخاطب يتمثّل فيما يأتي :

* ازدواج في القصد : حصول الوعي للقصد (التقاصد الخارجي و الداخلي) عند كلّ منهما (المتكلم و المستمع) .

* ازدواج التّكلم : إذا بلغ التقاصد غايته من نفس المتكلم، يتكلم كما لو كان المستمع هو الذي يتكلم أو كما لو كان المتكلم يحمل لسان المستمع في فيه .

* ازدواج الاستماع : كما لو كان المستمع يحمل سمع المتكلم في أذنه .

* ازدواج السياق : إنّ إنشاء مدلول القول في عملية التّكلم و تأويله في عملية الاستماع يتطلّبان معا التّوسّل بسياقات مزدوجة، فسياق الإنشاء يحتوي نصيبا من سياق التّأويل و العكس، هذا النصيب المشترك يكون التّفاهم.⁽³⁾ فالتفاعل الخطابي تزواج يحدث بين المخاطب و المخاطب يرتقي بالتّفاهم إلى الفهم و التّواصل إلى الوصال .

ت - الالتباس أو اللبس : ينطوي الحجاج على قدر من الالتباس في الوظيفة يميّزه عن البرهان و يفصل بينهما . فالأصل في الالتباس الحجاجي هو أنّ الحجاج يجتمع فيه اعتباران

(1) المرجع نفسه، ص 32 .

(2) اللسان و الميزان، مرجع سابق، ص 265 .

(3) المرجع نفسه، ص 266 .

اثتان لا يجتمعان البتة في البرهان، هما "اعتبار الواقع و اعتبار القيمة"....فالحجاج يبني على مبدأ الاستدلال على حقائق الأشياء مجتمعة إلى مقاصدها للعلم بالحقائق و العمل بالمقاصد⁽¹⁾. وهذا الالتباس هو المحرك لآليات الفهم و التأويل لدى المخاطب، فابن الأثير يرى أن سابقه لم يلموا بعلم المعاني و ذكر العديد من النقائص ثم علق عليها و بين وجه الصواب فيها بقوله: "خلاصة ما ذكره البلاغيون في مفهوم البلاغة و الفصاحة و بيان الفرق بينهما، قولهم أن الفصاحة هي الظهور... ووقفوا عند هذا الحد و لم يكشفوا عن السر فيه". و بهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحة، لأنه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات.... و أقول: إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين....ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة، و هي بهذه الصفة لأنها مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم و النثر... "فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها و استعمالها دون غيرها سبب ظهورها و بيانها"⁽²⁾. إن ابن الأثير بين حقيقة الفصاحة و كيفية اكتسابها جوهرها (الظهور و البيان) و ربطه بالقصد للعلم بحقيقتها و هذه الحقيقة مرتبطة بمقاصدها (الاستعمال). ممّا دفع ابن أبي حديد و هو يستقرئ كلام ابن الأثير (بحاول فهمه و تأويله) إلى الرد عليه فذكره برسالة لأبي محمد بن الخشاب في الفرق بين الفصاحة و البلاغة، و كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، و العبقري الحسان (لابن أبي حديد) الذي يرى أن الفصاحة أمر نسبي لأنها صفة اللفظ، فالكلام القبيح فصيح من جهة قبيح من جهة أخرى، كسماع صوت العود (محرم) لكنه لا يمنع أنه لذيق⁽³⁾.

ث - التأويل: هو عملية تقيم القول الحجاجي تقيماً سلبياً أو إيجابياً على مستويين: مستوى أول عن طريق استقبال القول كعلامة لغوية تحول فيها الرسالة السنن إلى الخطاب. وفي مستوى ثان، تتم عن طريق تعالق عنصري الفهم و التأويل. وهنا تدخل مجموعة من العوامل الخارجية لتحديد البعد التأويلي ذلك أن الخطاب لا يستعمل إلا في إطار سياق و مقام معينين، و هذا ما تؤكد النظرية التأويلية (إيكو) أي اعتماد السياق في تأويل الخطاب، أما

(1) المرجع نفسه، ص 30 .

(2) المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ج1، ص90-91.

(3) ينظر الفلك الدائر على المثل السائر، ص 88 - 89 .

التداولية فتضيف المقام. و إذا نظرنا إلى السِّياق و المقام اللّذين أَلّف فيهما ابن الأثير وابن أبي حديد كتابيهما أدركنا طبيعة التأويلات، فالمقام مقام علم و معرفة و صاحبي المؤلفين موسوعتين معرفيتين (كلاهما أديب، و شاعر، و فقيه، اشتغل بالدواوين). و ما مكن ابن أبي حديد من فهم أقوال ابن الأثير و تأويلها، تلك المعرفة المشتركة (الثقافة الواحدة) إذ يكون الردّ غالباً بنفس طريقة المنتقد الأوّل (ابن الأثير). إضافة إلى العصر الذي أَلّف فيه الكتابين و هو نهاية القرن السادس و جزءاً من القرن السابع الهجريين. الذي يعدّ عصر ازدهار البحوث البيانية و نضجها، و اكتمال الصورة النهائية للبلاغة العربيّة التي تمّ وضعها على يد السكاكي في كتابه - مفتاح العلوم - و للوظيفة المشتركة (الاشتغال بالدواوين) دورها في عملية البناء و عمليتي الفهم و التأويل، كما أنّ العصر كان عصر الردود فابن الأثير مثلاً، ردّ على - كتاب القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني - و عارضه⁽¹⁾.
 - و على كتاب لابن زياد الكاتب البغدادي⁽²⁾. - و كتاب لأبي إسحاق⁽³⁾.
 و كذلك ابن أبي حديد، ردّ على كتاب "للإمام فخر الدين و ناقض كتابه المحصّل - بكتاب شرح المحصّل" كما ردّ عليه بكتاب آخر "تقص المحصول في علم الأصول".
 و كتاب ردّ آخر "انتقاد المصنّف للغزالي في أصول الفقه"، ثمّ كتاب الفلك الدائر على المثل السائر" الذي ردّ فيه على ابن الأثير و ناقضه.

ج - الاعتقاد: أهمّ الأهداف و الجوانب الأساسية في العملية التّخاطبية استهداف اعتقادات الإنسان و هو ما يشكّل رهانا صعبا في كلّ حجاج، واعتقادات الإنسان لا تمثّل عناصر مادية ملموسة و تخلص من استدلال ذي بعد علمي برهاني، فهي ترتبط ببعض القيم الإنسانية كالنبل و التّضحية..... فالمعتقدات بصفة عامة هي ملتقى الأخلاق المقبولة لأنّها لا تخضع للتّحليل العلمي، فهي تقوم على أنساق فكرية و علل تمزج فيها الأقوال بالأفعال و المبادئ بالمسلّمات و الأقوال السّيافية... لتؤسّس أعمال القيمة.⁽⁴⁾ غير أنّ هذه الاعتقادات لا تفرض

(1) ينظر المثل السائر، ص 56 - 57 .

(2) المرجع نفسه، ص 58 - 59 .

(3) المرجع نفسه، ص 214 - 215 .

(4) ينظر عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل و الحجاج، إفريقيا الشرق

المغرب، ط1، 2006، ص 133 .

نفسها، بل يتحدّد معناها بالنسبة لكلّ فاعل و ينشأ من نتائج و حصيلة عمليات تواصلية إقناعية مركزها (محورها) الحجاج. و بتتبع العملية الحجاجية تحدّد بعض اعتقادات المؤلّفين الدّينية و الفكرية و الأدبية . إذ اعتمد ابن الأثير في تأليف كتابه " المثل السائر" على كثير من أمّهات الكتب في كلّ فن من الفنون التي تعرّض لها و قد أشار إلى هذه المراجع في أثناء دراسته، كما يظهر ذلك في استحضاره الشواهد المختلفة و حسن توظيفها. و الشيء نفسه نجده عند ابن أبي حديد فمؤلّفاته الكثيرة تدلّ على كفه بالثقافة الشرعية و الأدبية و سعة اطلاعه، فشواهدهما تدلّ على معتقدتهما الدّيني (الإسلام) و كذا شغفهما بالشعر و تشبّعهما بالروافد الفكرية المختلفة (بلاغة، نحو، صرف، تاريخ).

ح - الإنهاض إلى العمل:

يتمثّل في تأثير القول الحجاجي الدافع إلى ردّ فعل معيّن بالإقدام عليه أو الإحجام عنه، و هو دلالة حصول التأثير و الإقناع، لأنّ ردّ الفعل نتيجة لأثر الفعل في متلقيه.

و قد أثار ابن الأثير مسائل مهمّة لم تكن مطروحة، كتحديد ألوان المعارف الثمانية و اكتمالها شرطا لمن يقدم على علم البيان أو البلاغة ، و عالج أخرى بطريقة مغايرة و بيّن أوجه النقص فيها- فيما تعلق بمفهوم الفصاحة كما ذكرنا سابقا - فدعت الضرورة إلى الردّ عليه قصد بيان أوجه النقص في انتقاده و تقويمه في القضية ذاتها، كما قد يكون الخلاف الاعتقادي سببا في الردّ فردّ ابن الأثير على - القاضي الفاضل علي البيساني - مفتخرا بتوظيف الواقعة التاريخية يوم السقيفة - في قضية اختلاف العلويين و العباسيين - و انتصاره للعباسيين كان دافعا للردّ باعتبار ابن أبي حديد شيعيّاً، إذ يعدّ من أنصار العلويين .

مجالات الخطاب الحجاجي:

تتعدّد مجالات الخطاب الحجاجي بتعدّد الخلفيات المعرفية و منها:

المجال البلاغي: و نعني به البلاغة الحجاجية التي تعدّ الصور البيانية و المحسنات البديعية و وسائل إقناع .

المجال اللغوي: و نعني به الوسائل اللغوية الإقناعية كالمفوضية (بنفنيست) والأفعال الكلامية (أوستين) و التداوليات المدمجة (أنسكومبر و ديكر) و كيفية توظيفها لتحقيق خطاب

إفناعي، ومما ذكرناه ننتبين أنّ غاية الحجاج الإقناع، والإقناع كاستراتيجية خطابية معروف في التراث العربي جسّدته المنجزات الخطابية والمنافرات القبلية في العصر الجاهلي، وجاءت الرسالة المحمّدية مؤيّدّة لهذا، فكانت استراتيجية الإقناع بالحجاج واضحة في القرآن الكريم وأقوال الرسول صلّى الله عليه وسلّم، بعدها تنامت الخطابات في كثير من السّياقات وتبلورت في مختلف العلوم، كعلوم الفقه وأصوله وعلم الكلام والعلوم اللغوية، كما كان الإقناع مطيّة أطراف الخطاب في المسامرات وعقد الندوات والنقاشات. ثمّ اقتضت الحاجة في مواصلة فتح البلدان والمنافحة عن الدّين إلى الخطب والرسائل التي تستلزم توجيه النّاس نحو المراد والتأثير فيهم ليقنعوا بوجاهة القول أو جدوى العمل، فاستعملها الخلفاء والقادة والأعلام. (1) ومن أحسن النماذج تمثيلاً للخطاب الحجاجي كتب الردود النقدية المبنية أساساً على النّقض، وهو "اسم البناء المنقوض إذا هُدم، وفي حديث صوم التطوّع: فناقضني وناقضته، هي مفاعلة من نقض البناء وهو هدمه (...). وناقضه في الشّيء مناقضة وناقضاً: خالفه (...). والمناقضة في القول: أن يُتكلّم بما يتناقضُ معناه" (2). إذ بدأ ابن أبي حديد كتابه بحمد الله وشكره و الثّناء على نعمه، ثمّ ذكر وقوفه على كتاب "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر" لابن الأثير و حكمه عليه "فوجدت فيه المحمود و المقبول و المردود و المرذول" (3) بعدها بيّن أسباب تتبّعه الكتاب و مناقضته بقوله، منها إزراؤه على الفضلاء و غضّه منهم و عيبه لهم و طعنه عليهم فإنّ في ذلك ما يدعوا إلى الغيرة عليهم والانتصار لهم و منها إفراطه في الإعجاب بنفسه و التّبجّح برأيه، و التفريط لمعرفته و صناعته

.....

و منها أنّه قد أوماً مرارا في كتابه إلى عتاب دهره، إذ لم يعطه على قدر استحقاقه... و منها أنّ جماعة من أكابر الموصل قد حسن ظنّهم في هذا الكتاب جدا و تعصّبوا له، حتى فضّلوه على أكثر الكتب المصنّفة في هذا الفنّ و أوصلوا منه نسخا معدودة إلى مدينة السّلام

(1) استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص 447 .

(2) لسان العرب، م ن، ط3، المجلد الرابع عشر، ص 339 .

(3) الفلك الدائر على المثل السائر، ص 32 .

و أشاعوه و تداوله كثير من أهلها"⁽¹⁾، ثم حدّد الغاية من تأليف كتابه"و كان أكثر قصدي أن يعلم مصنف هذا الكتاب و رؤساء بلده أن من أصغر خول هذه الدولة من إذا ألغز أدرى...و أن دار السلام و حضرة الإمام ما خلت كما تزعم المواصله ممن إذا سوبق خلى...فكيف بسدنة كعبتها فحول البلاغة الذين إذا ركض أحدهم في حلبة البيان أخجل البروق"⁽²⁾. بعدها ذكر تاريخ ومدّة اطلاعه و تعليقه على كتاب المثل السائر "و هذا الكتاب وقع إليّ غرة ذي الحجة من سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة فتصفّحته أولاً أولاً...فكان مجموع مطالعاتي له و اعتراضي عليه خمسة عشر يوماً"⁽³⁾، كما بيّن سبب وسم كتابه بهذا العنوان "الفلك الدائر على المثل السائر" "لأنه شاع من كلامهم، و كثر في استعمالهم أن يقولوا لما باد و دثر "قد دار عليه الفلك" كأنهم يريدون أنه قد طحنه و محا صورته"⁽⁴⁾، بعد ذلك شرع في تتبّع ما ورد في كتاب مناظره من قضايا و انطلاقاً من تلك الحجج يبني حججه المضادة . و يعدّ كتاب "الفلك الدائر على المثل السائر" أنموذجاً في هذا الباب، إذ بُني على النقص الممتلّ في عمليتي البناء و الهدم، إذ تحدّد فيه الحجج المضادة انطلاقاً من الحجج المقدّمة أولاً و النتيجة المعاكسة انطلاقاً من النتائج الأولى، "فيتموضع الخطاب الحجاجي مقابل خطاب مضاد، بهذا المعنى لا ينفصل الحجاج عن الجدل، لأنّ الدّفاع عن أطروحة أو نتيجة، يقابله دفاع عن أطروحات أو نتائج أخرى، و لأنّ الدخول في الجدل لا يعني عدم الاتفاق فقط و إنّما يعني أيضاً أنّ المجادل يملك حججا مضادة". ممّا ذكرناه سالفاً فالمناظرة إطاره التداولي، فما المناظرة؟⁽⁵⁾.

المناظرة لغة: كما أوردها ابن منظور في -لسان العرب- "أن تتناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه...والتناظر: التفاوض في الأمر. ونظيرك الذي يراوذك وتناظره...ونظره من المناظرة... ناظرتُ فلاناً أي صرتُ نداءً له في المخاطبة"⁽⁶⁾ . أمّا المناظرة عند إبراهيم أنيس وزملائه في- المعجم الوسيط - ف" ناظر فلاناً: صار نظيراً له

(1) المرجع نفسه، ص 32 .

(2) الفلك الدائر، ص 34.

(3) المرجع نفسه، ص 34 .

(4) المرجع نفسه، ص 35 .

(5) النظرية الحجاجية، مرجع سابق، ص 108 .

(6) لسان العرب، مرجع سابق، ص 292 - 293 .

وباحثه وباراه في المحاجّة، (تناظر) القوم: نظر بعضهم إلى بعض، وتناظر القوم في الأمر: تجادلوا وتراوخوا... (المنظر): المجادل المحاجّ⁽¹⁾. والملاحظ في التعريفين أنّ ابن منظور ركّز على جانب التقابل والتبادل الخطابي، في حين أضاف إبراهيم أنيس وزملاؤه المحاجّة والمجادلة، و نجد المفهوم الاصطلاحي للمناظرة قريبا من مفهومها اللغوي، فالمناظرة (مفاعلة) .. تعدّدت زوايا النّظر إليها، مع أنّ مصدر الاستقراء واحد، هو التراث العربي الإسلامي، فهي شكل أو وعاء لموضوع يقع جدال أو خلاف حوله، أو نوع من المحاضرة يشترك فيها اثنان أو أكثر، أو نوع من الأنواع الأدبية الأخرى. ويعدّها - طه عبد الرحمان - منهجا حجاجيا تارة وعلما تارة أخرى .

أمّا الباحث حسين الصّديق في كتاب المناظرة في الأدب العربي الإسلامي فيرى "أنّ المناظرة كشكل من أشكال الخطاب الاحتجاجي كانت سمة النّقد العربي القديم منذ العصر الجاهلي وكتب النّقد نقلت إلينا العديد من هذه المناظرات، كاحتكام امرئ القيس وعلقمة إلى أمّ جندب في أيّهما أشعر في وصف الخيل، واحتكام حسّان بن ثابت والخنساء عند النّابغة الذبياني في أيّهما أشعر... فكّلها وجوه من أوجه المناظرة في هذه العصور الأولى لتاريخ الأدب العربي. لكنّها كنوع أدبي لها قوانينها وآدابها حيث تتخذ مكانتها بين أنواع أدبية أخرى في كتب الأدب العامة، وهي حينئذ شكل من أشكال التفكير، وهي خطاب اجتماعي يعكس الواقع الاجتماعي الثقافي للعصر، ظهر مع ظهور (علم الكلام) فارتبط به (2). ويؤكد هذا ما تبعه من آراء وتصويبات نقدية في مختلف العصور، كما أنّ المناظرة تقوم أساسا على العقل المتمثّل في القدرة على الاستنتاج والمحاكمة المنطقية، وربط النتائج بالمقدمات وعلى الفهم العام و السريع للمعطيات التي يعرضها الخصم (3) أمّا من حيث الأسلوب ف" المناظرة حديث يدور بين اثنين يعتمد فيه على قوّة الحجّة والإقناع" (4). و يرى - طه عبد الرحمان -

(1) إبراهيم أنيس وزملاؤه، المعجم الوسيط، ط2، ج2، دار المعارف، مصر، 1973، ص 932 .

(2) حسين الصديق ، المناظرة في الأدب العربي الإسلام، ط1، الشركة المصرية العالمية، لوجمان مصر، 2000، ص64.

(3) المرجع نفسه، ص 58 .

(4) المرجع نفسه، ص 85 .

الرحمان- أن التراث العربي الإسلامي بجميع مجالاته طبق عليه منهج المناظرة حيث" ظهرت صنوف من الخطابات تقرّ بالمناظرة منها فكريا مثل- خطاب التهافت-و-خطاب الردّ- و-خطاب النقائض- وما إليها، بل حيثما وجدت مذاهب ومدارس واتجاهات في مجالات المعرفة الإسلامية كانت المناظرة طريقة التعامل بينها، وهذا شأن الفقه (باب الخلاف) والنحو (باب القياس) والأدب(النقائض)⁽¹⁾. كما وضع للمناظرة شروطا وأخلاقيات وفقا لمبدأ التعاون الذي وضعه - غرايس- وهي:

أ - لا بدّ لها من جانبيين.

ب - لا بدّ لها من دعوى.

ت - لا بدّ لها من مآل يكون يعجز أحد الطرفين.

ث - لكلّ من الجانبين آداب ووظائف، فابن أبي حديد(كما ذكرنا سالفا) ردّ على ابن الأثير قصد بيان أوجه النقص في كتابه و الدفاع عمّن انتقدهم و بيان براعة كتاب بغداد و تفوقهم (وهو أحدهم) وبافتراضنا ردّ ابن أبي حديد المؤسس على نقد سابقه ابن الأثير مناظرة . يجدر بنا بيان مدى توفّر شروط المناظرة و أخلاقياتها، فجانبي المناظرة هما ابن الأثير و ابن أبي حديد و الدعوة تتمثّل في القضايا التي طرحها ابن الأثير وناقضها ابن أبي حديد كما أنّ لكلّ من المتناظرين آداب ووظائف كوظيفة المدّعي و المعارض، إلا أنّ شرط تفوّق أحد الطرفين على الآخر غير متوفر هنا و ذلك لعدم تواجبهما مباشرة.

أمّا أخلاقياتها فهي:

أ - أن يتقارب المتناظران مكانة و معرفة.

ب - أن يتداول المتناظران الحوار وأن يُمهّل أحدهما الآخر حتى يستوفي مسألته ويفهم عليه قوله.

ت - أن يتبع المتناظران قوانين التهذيب بعدم إساءة أحدهما للآخر بالقول أو الفعل.

ث - أن يتعاونوا على إظهار الحقّ والاعتراف به .

(1) طه عبد الرحمان، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2000، ص 74 - 75.

فالمتناظران متقاربان مكانة و معرفة (كلّ منهما أديب فقيه و شاعر اشغل بالديوان) كما أنّ الخطاب الكتابي خطاب مدبّر يساعد على التّمعن و التّدبر فيتحقق فيه شرط إمهال أحد الطرفين الآخر حتى يستوفي مسألته و يفهم عليه، أمّا قوانين التهذيب فقد غاب بعضها نتيجة المزوجة بين الحجاج التوجيهي و التقويمي، كما أنّ المتناظران لم يتعاونوا على إظهار الحق و الاعتراف به وذلك لعدم التواجه المباشر وإلى طبيعة الرّدود كذلك (الرّد يتطلّب تحقيق التّفوق

المبحث الثاني: العلاقة التخاطبية واستراتيجياتها :

تتأسس استراتيجيات الإقناع وفق طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب وكذا شكل الخطاب اللّغوي و الهدف منه، فيختار المتكلم الاستراتيجية المناسبة لخطابه التي تظهر أكثر في الخطاب المكتوب باعتباره خطابا مدبّرا يستحضر فيه المخاطب المتلقي.

1- العلاقة التخاطبية :

سنحاول دراسة العلاقة التخاطبية بجانبها التواصلي و التعاملي المشكلان محور أيّة علاقة حوارية بين (ذاتين) طرفين أو أكثر، فالتواصل نشاط اجتماعي يتمّ بين طرفين أو أكثر ويكون منظّمًا حسب مقتضيات اللّغة المستعملة فيه، وذلك لتنسيق علاقات النّاس، فإن تمّ الجمع بين القول و العمل سمّي خطابا. و تعدّ "اللّغة الطبيعية أحد أنظمة العلامات التي يستعملها الإنسان لتجسيد قصده، وتحقيق هدفه، أي لتحقيق الإفهام و الفهم بين أطرافه من جانب و تحقيق ما يصبو إليه - هو - من جانب آخر، بيد أنّ أهميتها تتجاوز ذلك إلى أنّها هي الأداة الأهمّ، فلا يقتصر دورها على وظيفة نقل الخبر، أو وصف الواقع، بل ينجز بها أعمالا لا يستطيع إنجازها من دونها" (1). لهذا فإنّ الدرس اللغوي التداولي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل و ليس بمعزل عنه، "لأنّ اللّغة لا تؤدي وظائفها إلّا فيه، فليست وظائف مجردة وبما أنّ الكلام يحدث في سياقات اجتماعية، فمن المهمّ معرفة تأثير هذه السياقات على نظام الخطاب المنجز" (2). باعتباره ميدان استعمال اللّغة. إنّ القرنين السادس

(1) استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص 25 .

(2) المرجع نفسه، ص 23 .

و السابع الهجريين يمثلان ثراء علميا ونضجا فكريا لا مثيل لهما فبعد أن قننت مختلف الفنون ووضعت مناهجها، ازدهرت الرّدود النّقدية و منها الفلك الدائر إذ كان صاحبه مشغولا بالديوان واسع الثقافة فعملت هذه السلطة الفكرية والاجتماعية على توجيه نظام خطابه فكثيرا ما يوظف الحجاج التوجيهي (الاهتمام بكيفية إيصال الحجّة). وبحثنا يخصّ الخطاب اللغوي البحت " فحدّ الخطاب أنّه كل منطوق به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا"⁽¹⁾.

و يستوي في ذلك الخطاب بشقيه المكتوب والشفهي. نتبيّن من هذا أنّ بلورة عملية التواصل في الخطاب تقتضي وجود: 1- (ناطق - مرسل - ملق) مخاطب: يتوجّه بمنطوقه. 2- (مستمع - مرسل إليه - متلق) مخاطب: هو الذي يقصده المخاطب بفعل إلقاءه أو (بمنطوقه).

3- الإفهام و يتمّ بفضل العناصر المشتركة مثل:

* العلاقة بين طرفي الخطاب .

* المعرفة المشتركة .

* الظروف الاجتماعية (المؤطرة لعملية التواصل).

على ضوء ما ذكرناه سنحاول استقراء كتاب " الفلك الدائر على المثل السائر" بغية تحديد هذه العناصر (المرجعية) و بيان أثرها في تحديد صيغة الخطاب. نجد في هذا الكتاب خطابين متضادين ، الخطاب الأوّل : من ابن الأثير ينتقد فيه سابقه و معاصريه، أمّا الخطاب الثاني: فمن ابن أبي حديد يعارض فيه ابن الأثير و ينتقده، وسنتبيّن أطراف الخطاب في مرحلتيه.

تحديد المخاطب في الخطاب الأول :

ترتبط الأقوال ارتباطا وثيقا بقائلها في الخطاب الشفهي كما في الخطاب الكتابي، والخطاب لا يتجلّى دون استعمال العلامات المناسبة التي تحيلنا إلى العالم الواقعي كالإشارات الشخصية أو الضمائر، وهي الإشارات الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب. فالضمير أنا، التاء، الياء، ونحن، ونا(للمتكلم)، وأنت، وأنتما، وأنتم، وأنتنّ، والكاف

(1) اللسان و الميزان، مرجع سابق، ص 215 .

(للمخاطب)، وهي وهو، هما، هم هنّ، والهاء للغائب⁽¹⁾. وقد حدّد المخاطب (ابن الأثير) هويّته باستعماله مختلف الضمائر الدّالة على ذلك، منها ما أورده في خطبة كتابه: "و كنت عثرت على ضروب كثيرة منه،... ولم أجد أحدا ممّن تقدّمني"⁽²⁾. و"لا أدعي فيما ألفتّه من ذلك فضيلة الإحسان... و لنرجع إلى ما نحن بصدده"⁽³⁾. إذ وظّف تاء المتكلم (الدّالة على الفاعل) و المعادلة ل (أنا) و كذلك ياء المتكلم. والضمير المستتر في (أحد) الدّال على الفاعل (أنا)، كما أشار إلى نفسه ب"نحن" من باب التّعظيم لنفسه، إذ كان معجبا بعلمه ومزهورا بفنّه حتّى أنّه ختم حلّه المنظوم بقوله" و في هذا من الحسن ما لا خفاء به، فمن شاء أن ينثر شعرا فلينثر هكذا و إلّا فليترك"⁽⁴⁾.

المخاطب: هو الطرف الآخر الذي يوجّه إليه المرسل خطابه عمدا، فبناء الخطاب و تداوله مرهون إلى حد كبير بمعرفة حاله، أو بافتراض ذلك الحال" إذ أنّ المرسل إليه حاضر في ذهن المرسل عند إنتاج الخطاب، سواء أكان حضورا عينيا أم استحضارا ذهنيا، وهذا الشّخص أو الاستحضار للمرسل إليه هو ما يسهم في حركية الخطاب، بل يسهم في قدرة المرسل التّنويعية، ويمنحه أفقا لممارسة اختيار استراتيجيّة خطابه⁽⁵⁾، لذا وظّف ابن الأثير في خطبة كتابه بعض الأدوات اللّغوية قصد تحديد المخاطب، منها الإشارات الشخصية ك: (كاف) الخطاب في قوله: " وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذنا...، و سألت عمّا ينتفع به في فنّه قيل لك هذا"⁽⁶⁾. وكذا تاء الفاعل المعادلة للضمير (أنا)، كما نجد فعل الأمر في قوله"واعلم أيّها الناظر في كتابي"⁽⁷⁾ المنطوي على (أنت) الذي يوجّه إليه الخطاب"⁽⁸⁾. و كذا المنادى أيّها الناظر فكّلها إشارات تحيل إلى متلقي الخطاب، و الملاحظ أنّ ذات المتلفظ تتغيّر بتغيّر السياق فلما تحدّث عن مطالعته و اجتهاده لينسب العمل لنفسه خاصّة

(1) ينظر : عباس حسن، النّحو الوافي، ط6، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1979، ص 217 .

(2) المثل السائر، مرجع سابق، ص 34 .

(3) م . ن، ص 36 .

(4) المثل السائر، ج1، ص 107.

(5) استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص 48 .

(6) ينظر : المثل السائر، ص 35 .

(7) الرجوع نفسه، الصفحة نفسها .

(8) استراتيجيات الخطاب، ص 83 .

وظّف الضمائر الدّالة على المفرد (أنا، التاء..) وحين أظهر إعجابه بنفسه و زهوه بفنه وظّف الضمير الدّال على الجماعة (نحن) قصد التعظيم، فممارسة التّلفظ هي التي تدلّ على المرسل في بنية الخطاب.

المخاطب في الخطاب الثاني:

المرسل (المخاطب): هو الذات المحورية في إنتاج الخطاب لأنّه هو الذي يتلفّظ به من أجل التعبير عن مقاصد معيَّنة، وبغرض تحقيق هدف فيه، و يجسّد ذاته من خلال بناء خطابه. و لا يمكن للغة الطّبيعية أن تتجسّد، و تمارس دورها الحقيقي، إلا من خلال المرسل فتصبح موجودا بالفعل بعد أن كان وجودها بالقوّة فقط (1)، فابن أبي حديد في كتابه نقل اللّغة من علامات لغوية إلى سنن خطابي من خلال التلفظ بها، حيث عبّر عن مقاصده المتمثّلة في نقض كتاب المثل السائر و محو صورته بغرض بيان مقدرته اللغوية و إظهار تفوقه، و ذلك نتيجة ارتباطها بقائلها لحظة التلفظ و استمرارية ذلك بعد القول، إذ تصير تلك الارتباطات مرجعيات تحيل إلى وقائع و سياقات خارج نصية تنبئ عن صاحبها، منها الإشاريات كأسماء الإشارة و الضمائر حيث تعتبر من العلامات اللغوية التي لا يتحدّد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي لأنّها خالية من أي معنى في ذاتها، لذلك "ينفق النّحاة جميعا على أنّ الأسماء المبهمّة يعنى بها أسماء الإشارة، وقد خصّ بعضهم المبهمات بأسماء الإشارة وحدها"(2). و"لا يمكن أن تتمّ عملية التلفّظ بالخطاب دون حضور الأدوات الإشارية الثلاثة و هي (الأنا، هنا، الآن ويمثّل كل منها نوعا من الإشاريات و هي : الإشاريات الشخصية، الزمّانية، والمكانية، ولأنّها موجودة في كفاءة المرسل اللغوية فإنّه لا ينطقها في كلّ حين"(3)، يتحدّد المخاطب في هذا الخطاب من خلال إشاريات أهمّها تاء المتكلّم أو الفاعل كقوله : فاعترضت عليه بهذا الكتاب، وتقرّبت به إلى الخزانة الشريفة(4)

(1) ينظر استراتيجيات الخطاب، ص 45 .

(2) إبراهيم إبراهيم بركات، الإبهام و المبهمات في النّحو العربي، دار الوفاء، المنصورة، مصر، 1408 هـ / 1987 م ص 33 .

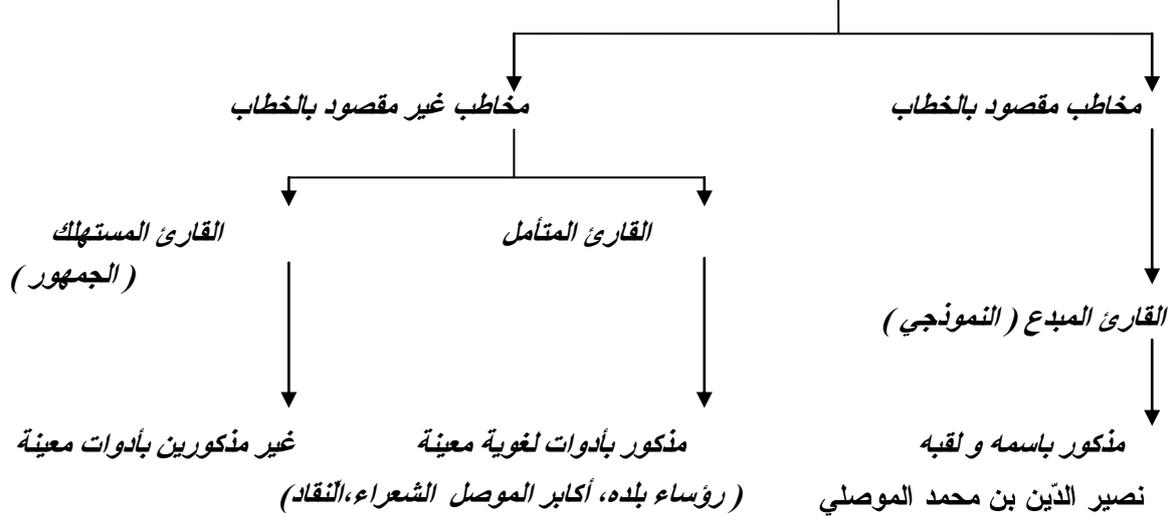
(3) استراتيجيات الخطاب، ص 82 .

(4) المثل السائر، ص 33 .

فتصفّحته أوّلاً أوّلاً في ضمن الأشغال الديوانية التي أنا بصددّها (1). وكذلك الضمير المنفصل أنا الدال على الذات الفاعلة، كما نجد مؤشرا دلاليا آخر ساهم في تحديد هويّة المخاطب و هو ذكر الأشغال الديوانية ممّا يدلّ على الوظيفة أو المهنة، وهي نوع آخر من الأنواع الدالة على المخاطب.

المخاطب: يحدّد المخاطب مخاطبه مباشرة في مقدمة كتابه إذ يقول: " فقد وقفت على كتاب نصير الدّين بن محمد الموصلّي المعروف بابن أثير الجزيرة " (2)، فهنا حدّد المخاطب بالاسم و اللقب ممّا حقّق قصد التوجّه الذي أشار إليه طه عبد الرحمان، كما أنّ هناك نماذج من المتلقين قصدهم المخاطب بقوله: " وكان أكثر قصدي أن يعلم مصنّف هذا الكتاب و رؤساء بلدته أنّ دار السّلام وحضرة الإمام ما خلت كما تزعم المواصلة ممّن إذا سوبق خلى... و فساد المعنى ظاهر عند من له أدنى نقد للمعاني الشعريّة. (3)، ومن عنده أدنى ذوق في فنّ الكتابة يعرف الفرق بين كلامنا و هذا الكلام (4)، فابن أبي حديد توجّه بخطابه إلى ابن الأثير بالدرجة الأولى ثمّ ذكر مخاطبين آخرين، منهم الأكابر والرؤساء من المواصلة و كلّ متذوّق لفنّ الكتابة و ناقد لمعاني الشعر، و نعني بهم الشعراء و النقاد والجمهور (عامة الناس)، و يمكن التمثيل له بما يأتي :

أنواع المخاطبين



(1) المثل السائر، ص 34 .

(2) الفلك الدائر، ص 32.

(3) ينظر الرجوع نفسه، ص 27 .

(4) ينظر المرجع نفسه، ص 104.

وننبئين من هذا المخطط الجوّ العام (السياق) الذي تمّت فيه هذه العلاقة التخاطبيّة (لغويا وسياسيا و اجتماعيا و شخصيا) كما أشرنا إليه في عنصري التّأويل و السّياق سابقا .ففترة وجود المتناظرين تزامنت و عصر المناظرات و المناقشات و المنافسات الفكرية و السياسيّة في العراق_ و سنشير إلى هذا لاحقا _ ، لذا فقد تجاوزت عملية الإقناع المتخاطبين إلى استمالة الجمهور ومحاولة التأثير فيه بشتّى الوسائل اللّغوية. فابن أبي حديد استعمل عبارات من قبيل من عنده أدنى ذوق في فنّ الكتابة أو نقد للمعاني الشعريّة يعرف ...إذ ربط معرفة صواب رأيه لدى جمهور المتلقين بأبسط المعارف في فنّ الكتابة و نظم الشعر ممّا يجعل الجمهور مخيرا بين الوقوف إلى جانبه (ابن أبي حديد) أو الإقرار بجهله التّام لفنّي المنثور و المنظوم ممّا يرجّح الرّأي الأوّل(الإقرار) وهي إحدى طرق كسب المصادقيّة القوليّة و تحقيق القوّة التّأثيريّة .

استراتيجيات الخطاب:

إنّ استحضار المرسل إليه يسهم في قدرة المرسل التّنويعية و يمنحه أفقا لممارسة اختيار استراتيجيّة خطابه، فتتعدّد الإستراتيجيات الخطابية وفق المقام ومقتضى الحال حيث يلتزم المخاطب استراتيجية واحدة أو ينوّع استراتيجياته في الخطاب الواحد، قصد إقناع المتلقي وتحقيق مكانة بين القراء فتغيّر الظروف المحيطة يتبعه تغيّر في الاستراتيجية المنتقاة لتحقيق الهدف، وممّا استعمله ابن الأثير وابن أبي حديد في مناظرتهم .

- استراتيجية البناء :

يعدّ الانتقاد (النقد) قبولا بالمناظرة، التي تقيم تقابلا (افتراضنا بناء على ما ورد في مدوّنة الفلك الدائر) يتواجه فيه "العارض و المعارض" وهما في الكتاب ابن الأثير و ابن أبي حديد لأجل غرض معيّن، ممّا يعني توفر أدنى شروطها الضامنة أداء موقفا للفعل اللغوي والتي جمعها "سورل" في أربعة أنواع من الشروط و هي :

أ - شروط مضمون القضية : و هي تحدّد أوصاف المضمون المعبر عنه بقول مخصوص و تتمثّل في الطريقة التي طرح بها ابن أبي حديد قضاياها و كفيّة التعبير عنها إذ كان يعرض قول مناظره ثم ينقضه.

ب - الشروط الجوهرية : و تعيّن هذه الشروط الغرض التواصلّي من الفعل التكلّمي . و هو النّقض إذ صرّح ابن أبي حديد بأنّ غايته من تتبّع كلام مناظره دحضه و محو صورته.

ج - شروط الصدق : تحدّد الحال الاعتقادي للمتكلّم المؤدي الفعل التكلّمي، فابن أبي حديد معتقد صدق أقواله وصحّة قضيتّه، وذلك ظاهر في كثرة شواهد و تنوعها.

د- الشروط التمهيدية :و تتعلّق بما يعرفه المتكلّم عن قدرات و اعتقادات و إرادات المستمع و عن طبيعة العلاقة القائمة بينهما (¹). إضافة إلى اتّفاقهما على التعاون فيما بينهما على الحوار و بموجب هذا الاتّفاق يلتزم كلّ مناظر بتوجيه خطابه إلى متلق معيّن ممّا يعني مطالبته الدخول معه في المحاورة، وذلك بتجاوزه نقل الخبر إلى إبلاغه الغير للتأثير فيه. و تظهر معرفة ابن أبي حديد بابن الأثير و طبيعة العلاقة بينهما من خلال سياقات نصيّة كذكر ابن أبي حديد مناظره باسمه الحقيقي (نصير الدّين بن محمد الموصلّي) واللقب المعروف به (ابن أثير الجزيرة)، تحديده مدّة مطالعة الكتاب و نقضه (خمسة عشر يوما) وسياقات خارج نصيّة كعيشهما في بلد واحد العراق و امتهانهما نفس المهنة (الدّيون) و معاصرة بعضهما (ابن الأثير 558-637هـ، الموصل - ابن أبي حديد 586 هـ - 656هـ بغداد) بل وتواجههما في نفس المكان (بغداد) في مرحلة متأخرة من حياة ابن الأثير إذ بها توفيا⁽²⁾. وعلى كل مناظر تجاوز نقل الخبر إلى إبلاغه الغير للتأثير فيه، وهذه الازدواجية تقتضي توظيف إستراتيجيتين خطابيتين :

أ- الإستراتيجية التضامنيّة :

وهي الإستراتيجية التي يحاول المرسل أن يجسّد بها درجة علاقتة بالمرسل إليه و نوعها و أن يعبر عن مدى احترامه لها و رغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجمالاً هي محاولة التقرّب من المرسل إليه وتقريبه⁽³⁾. تبدأ المناظرة بإعلان ابن الأثير مسألته و تأكيد قضيته مخبراً مناظره (المتلقّي) بمكانة و أهميّة علم البيان و قصور من سبقوه و عاصروه في هذا الميدان، حيث يقول : إنّ علم البيان

(1) اللّسان و الميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص 261 .

(2) ينظر: تصدير الكتابين (المثل السائر - و - الفلك الدائر).

(3) عب إستراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص 257 .

لتأليف النظم و النثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام و أدلة الأحكام، و قد أَلَّفَ النَّاسُ فِيهِ كِتَابًا و جلبوا ذهباً و حطبوا حطباً، وما من تأليف إلا و قد تصفحت شينه و سينه و علمت غثه و سمينه، فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب "الموازنة للآمدي، وكتاب "سرّ الفصاحة للخفاجي" (1).

و قد بدأ خبره بمؤكّد "إنّ ليثبته و يعلم المتلقي إن كان خالي الذهن منه مسبقاً، و يؤكّده و يوسّعه إذا كان به عالماً، ثمّ قارن علم البيان بعلم أصول الفقه على سبيل القياس ليستخلص النتيجة المقصودة و هي أهميّة علم البيان، ثمّ وجّه خطابه لانتقاد سابقه و معاصريه و الافتخار بنفسه و إعجابه بعلمه، إلّا أنّه أبدى نوعاً من التضامن مع بعضهم كاستثناء الآمدي و ابن سنان الخفاجي و مع المتلقي (المتعدد) حين قال: "ومع هذا فإنّي أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه، و حمت حول حماه و لم أقع فيه" (2)، على أساس التواضع و تقريب منزلة المتلقي من منزلته و مع هذا فهو يقرّ بأنّ كتابه رغم تميّزه لم يتناول لبّ هذا العلم (البيان) ففي هذا تأكيد على أهميّة ما بدأ به من مقارنته علم البيان بعلم أصول الفقه في الأحكام، و قد تمّ الانتفاع بنوعيه (عاجله و آجله) في هذا الخطاب .

فالعاجل: تعريف المخاطب بقصور الكتب المؤلّفة في هذا الفنّ و بيان ما جاء به هو (المخاطب).

الآجل : استفادة المتلقين على اختلافهم بما جاء في هذا المؤلّف من انتقادات و تقويمات و إضافات.

وإذا تصفحنا خطاب ابن الأثير نجد فيه الكثير من الأخبار بالقليل من اللفظ، وبذلك قد استوفى قاعدتين من قواعد "غرايس" الخطابية وهما قاعدتا : الجهة و الكم ومفادهما ما يأتي:

- قاعدة الكيف **Qualité**: أو ما يسمّى جهة الخبر : و التي تنفرّع عنها الشروط الآتية :

- لتحتز من الخفاء في التعبير .

(1) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ج1، ص 33 .

* أصول الفقه : من القواعد التي يتوصّل بها المجتهد إلى استنباط الأحكام الشرعيّة الفرعيّة .

* تصفّحه كلّ حاله و عاطله معجمه و مهمله .

* الغثّ : المهزول .

(2) المثل السائر، ص 35.

- لتحترز من الاشتباه في اللفظ .

- لتتكلم بإيجاز .

- لترتب كلامك .

و قاعدة كم الخبر Quantité : و صيغتها :

- لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته .

- لا تجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب⁽¹⁾.

فقد أوجز المخاطب كلامه ورتبه بطريقة تمكنه من اجتلاب نفع ودفع ضرر، فالمنفعة

كامنة في التأثير في المتلقي و إذعانه وإبعاد شكه و تجنب اعتراضه، مراعيًا في ذلك

قاعدة أخرى مهمة من قواعد التخاطب ترتبط بعلاقة الخبر بمقتضى الحال و صيغتها "

ليناسب مقالك مقامك"⁽²⁾. و تعادل القوة الثانية من قوى الإبداع الثلاثة عند القرطاجني: القوة

الحافظة، القوة المائزة، والقوة الصانعة وهي التي يميز بها الإنسان ما يلائم الموضع و النظم

و الأسلوب و الغرض، مما لا يلائم ذلك، وما يصح مما لا يصح" (³). وابن الأثير في

موضع فخر لذلك وظف الإخبار لأنه الكلام القابل للتصديق أو التكذيب بمقابلته مع الواقع

حيث أن ما ذكره يطابقه الواقع المتمثل في كتابه (المثل السائر) فهو يعتقد صدق دعواه

وهي إحدى شروط المناظرة، والأخبار التي أوردها (ابن الأثير) وقائع خارجية تحولت

إلى وقائع لغوية بفضل الكفاءة التداولية لدى مستعمل اللغة (المخاطب).

ب- الاستراتيجية التوجيهية :

هي الاستراتيجية التي يولي المرسل عنايته فيها لتبليغ قصده و تحقيق هدفه الخطابى، بإغفال

جانب التآدب التعاملى الجزئى فى الخطاب⁽⁴⁾. والخطاب ذو الإستراتيجية التوجيهية يعدّ

ضغطًا و تدخلًا و لو بدرجات متفاوتة على المرسل إليه وتوجيهه لفعل مستقبلي معيّن⁽⁵⁾.

(1) فى أصول الحوار و تجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص 104.

(2) م ن، ص نفسها .

(3) أبو الحسن حازم القرطاجنى، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تقديم و تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط2، دار

الغرب الإسلامى، بيروت، 1981، ص 43 .

(4) م ن، ص 322 .

(5) المثل السائر، مرجع سابق، ص 34 .

ويجسد المرسل سلطته على المرسل إليه بحكم التفاوت الاجتماعي بينهما فقد يتلفظ المرء بخطابه وفق مقتضى الإستراتيجية التضامنية من تأدب و تخلق خطابين، إمّا مراعاة لعلاقته الحسنة مع المرسل إليه وإمّا بقصد تأسيسها معه بالخطاب، لكنّه قد يغفلها و لا يكثرث بها في خطابه إن وجدت، كما قد لا يكون همّه هو تأسيسها، فيتلفظ وفقا لما تقتضيه إحدى الاستراتيجيات الأخرى و هي ما نسميه هنا الإستراتيجية التوجيهية⁽¹⁾. ذلك أنّ هناك " سياقات لا تناسبها الخطابات المرنة التي تمنح الأولوية لمبدأ التّهذيب و عوامل التّخلق ومردّد ذلك إلى أسباب كثيرة منها ما يتعلّق بأولوية التّوجيه على التّأدب في خطابات النّصح و التحذير و غيرها، فالمرسل يولي عنايته فيها لتبليغ قصده وتحقيق هدفه الخطابى، بإغفال جانب التّأدب التّعاملى الجزئى في الخطاب " (2). لأنّ ابن الأثير يهدف إلى بيان مكانته العلمية بالحطّ من مكانة سابقه و معاصريه (من خلال انتقاد مؤلّفاتهم) و الإفتخار بثقافته من خلال بيان سعة اطلاعه، إذ أنّه تصفّح كلّ الكتب المؤلّفة في هذا العلم و لم يترك شاردة و لا واردة إلّا و أمّ بها، كما اعتمد الاستعارة (التصريحية) في بيان ذلك بقوله: "ألف الناس فيه كتباً و جلبوا ذهباً و حطباً" للدلالة على ما في هذه الكتب، فمنها القيم و أكثرها لا يعتدّ به، إذ قال فلم أجد ما ينتفع به إلّا كتابي (الموازنة و سرّ الفصاحة)، وفي هذا دلالة ثالثة على سعة ثقافة المخاطب وحتّى الكتابين المستثنيين فيهما نقص و يظهر ذلك في قوله " على أنّ الكتابين قد أهملنا من هذا العلم أبواباً، ولربّما ذكرنا في بعض المواضع قشورا و تركنا لباباً" (3)، و لا يكتفي ابن الأثير بانتقاد سابقه، بل يواصل فخره بنفسه ومداركه العلمية ونباهته و أسبقيته فيما توصّل إليه فيقول: "و كنت عثرت على ضروب كثيرة منه في غضون القرآن الكريم و لم أجد أحدا ممن تقدّمني تعرّض لذكر شيء منها، وهي إذا عدّت كانت في هذا العلم بمقدار شطره، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره... . وهداني الله لا ابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة و منحي درجة الاجتهاد التي لا تكون

(1) استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص 322 .

(2) م ن، الصفحة نفسها .

(3) المثل السائر، ص 34 .

أقوالها تابعة، وإنما هي متبعة و كل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي هذا" (1). فابن الأثير يؤكد على صفات - الإبداع و الاجتهاد - والأسبقية ويستدل بما يحويه كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر) قصد إبقاء الفوارق المعرفية بينه وبين مناظره شعورا منه بالتفاوت في مستوى التفكير، لذا عمد إلى الإكثار من مدح نفسه (ذاته) و ذم غيره بالمقابل، مخترقا بذلك قاعدة الاستحسان عند ليش و صورتها _ قلل من الاختلاف بين الذات و الغير و أكثر من توافقهما (2). فقد تجاوز المخاطب تهذيب الخطاب من خلال استعماله بعض الأساليب والأدوات اللغوية التي لا تتضمن بطبيعتها ذلك، لأن تهذيب الخطاب يأتي لديه في المقام التالي، في حين يتقدمه مرتبة تبليغ المحتوى، وهذا عكس ما تدعوا إليه النظريات التي تناولت التأدب (3). و ذلك بتوظيفه أساليب التوجيه المختلفة : كالنفي و الاستفهام و الأمر و التعجب مثلا : اعلم أيها الناظر في كتابي هذاو عجيب - كيفلا أعلم... (التي سنخصها بالتوضيح و الشرح كآليات حجاجية في الفصل الثاني من البحث) وقد كانت هذه الإستراتيجية التوجيهية المحرك والدافع الذي جعل ابن أبي حديد ينتهز للرد على ابن الأثير و يتتبع أقواله و يناقضها قولا قولا .

إستراتيجية الهدم :

بعد أن استوفى ابن الأثير خطابه (و هي إحدى خصائص المناظرة التي تتجسد في الخطاب المكتوب أكثر منه في الشفهي) يبدأ مناظره خطابه المضاد فقد كان غرض ابن الأثير تبليغ الخبر (المعاني) والتأثير في المتلقي قصد دفعه للرد، وهو ما يسميه أوستين بالفعل التأثيري Acte perlocutoire الذي ينتج عن الفعلين التعبيري و الإنشائي و يظهر ذلك في نص كتاب الفلك الدائر حيث قال "قصداني على تتبعه و مناقضته أمور، منها إزراؤه على الفضلاء و غضبه منهم و عيبه لهم، و طعنه عليهم، فإن في ذلك ما يدعو إلى الغيرة عليهم، و الانتصار لهم و منها إفراطه في الإعجاب بنفسه، و التبجح برأيه، و التقريظ لمعرفته و صناعتهو منها أن جماعة من أكابر الموصل قد حسن ظنهم في هذا الكتاب جدا و تعصبوا له

(1) المثل السائر، ص34.

(2) اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، ص 246 .

(3). استراتيجيات الخطاب، ص 323 .

حتى فضّلوه على أكثر الكتب المصنّفة في هذا الفنّ، وأوصلوا منه نسخا معدودة إلى مدينة السلام، وتداوله كثير من أهلها" (1). فالمنظر الثاني ابن أبي حديد بيّن أسباب انتهازه للعمل مما يدلّ على أنّ التأثير قد حدث و الخبر حلّ و فهم، بعدها حدّد قصده من تأليف الكتاب بقوله: "و كان أكثر قصدي في ذلك أن يعلم مصنّف هذا الكتاب و رؤساء بلدته أنّ من أصاغر خول * (2) هذه الدولة الشريفة - فالعجب مبير وما أنبئ عني فمثلي كثير - من إذا ألغز أدري و إذا ضرب أفرى(3)، وقد سمّيت هذا الكتاب (الفلك الدائر على المثل السائر) لأنّه شاع من كلامهم و كثر في استعمالهم أن يقولوا لما باد و دثر (قد دار عليه الفلك) كأنهم يريدون أنّه قد طحنه و محا صورته (4). فالغاية من الردّ الاعتراض على الكتاب و نقضه ليعلم مصنّفه و من أعجبوا به أنّ أصاغر بغداد يفوقونه علما و معرفة و ما أكثرهم - فكيف بأكابرها- و ابن أبي حديد واحد منهم، وقد أورد ذلك بعد ثنائه على خول بغداد حيث قال: "كيف بسدنة كعبتها و الحافين بشريف سدّتها فحول البلاغة" (5). فالقصد هو النّقض. وبتحليل المنظومة اللسانية يتضح المحتوى القضوي للقول، إذ يتمحور حول بؤرة دلالية واحدة و هي أيّهما أفضل من الآخر من ناحية: الفصاحة و البلاغة و هي خاصية فردية يمتلكها فرد واحد، وهنا تحدّد محور الجدل و تبين القصد فكلاً منهما يريد إثبات أفضلية كتابه، فابن الأثير يرى أنّ كتابه أفضل من كتب سابقيه و معاصريه ممّن نقدهم، و ابن أبي حديد يرى عكس ذلك من خلال مناقضته ابن الأثير، وبهذا فقد بلغت هذه المناظرة المرتبة الثانية من مراتب الحوارية عند طه عبد الرحمان (و هي المحاوره) (6). التي تعتمد الحجاج منها استدلاليا، والاعتراض آليتها الخطابية بالرفع من شأنه و الحطّ من قيمة خصمه (فنه)، و بهذا تحوّل (ابن أبي حديد) من مخاطب إلى متكلّم وفقا لقانون الفعل

(1) الفلك الدائر على المثل السائر، مرجع سابق، ص 32 .

(2) * الخول : الخدم و الإماء و العبيد و غيرهم من الحاشية .

(3) المرجع نفسه، ص 33 .

(4) المرجع نفسه، ص 35 .

(5) ينظر المرجع نفسه ، ص 34.

(6) ينظر في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، ص 57 .

و ردّ الفعل ولإعطاء الاعتراض مصداقية أكثر جرّد ابن أبي حديد من نفسه ذاتا ثانية (اعتبارية) أنزلها منزلة المعترض وبيّن خطابه المضاد على تصوّر ردة فعله (فعل المخاطب) وهو ما يسميه طه عبد الرحمان بتعدّد الذوات (1)، ففي قضية تغليب (ابن الأثير) مفسري الأشعار في اقتصارهم على شرح المعنى... دون بيان ما تضمنه من أسرار البلاغة و الفصاحة يبدأ رده ب: أقول: إن مفسري الأشعار جعلوا قصدهم و كدهم كشف مراد الشاعر ليعلم... فإن قلت: قد تكلم كثير من شارحي الأشعار في العروض و القوافي و دقائق في التصريف أيضا قلت: وقد تكلم كثير من شارحي الأشعار في نقدها و بحثوا عن فصاحتها و بلاغتها و ما تحتها من أسرار ذلك (2). كما أن ردود ابن أبي حديد في مختلف القضايا جاءت مشفوعة بالشواهد المختلفة (الدينية: القرآن و الحديث و أقوال الصحابة و التابعين) و الشعرية (أبيات لمختلف الشعراء) و كلام العرب (حكما و أمثاله) فأكسبت أخباره مصداقية (سنتناولها مفصلة في الفصل الثاني) سواء تعلق الأمر بصدق اعتقاده أو مطابقته الواقع، مما سوّغ له التّماذي في استخدام الإستراتيجية التوجيهية خارقا بذلك العديد من قواعد التّخاطب المتفرّعة على مبدأ التعاون ومنها السّخرية حيث قال: كما توهمه هذا الرّجل (3)، ولو أخذنا تناقضه في هذا لأطلنا كما أطال و سمجنا كما سمج (4)، و هذا عكس عكس مبدأ التّادّب الذي أورده "روبين لاكوف" و صيغته لتكن مؤدّبا و مبدأ التودّد و صيغته: لتظهر الودّ للمخاطب (5). و مردّ هذه الخروقات لمبدأ التعاون و ما يتفرّع عنه هو مبدأ النّقض في المناظرة، الذي يفرض على المعارض أن يكون في مقام خاص، يجبره على نقض كلّ معاني خصمه و مجاراته فيها، وهذا ما فعله ابن أبي حديد في كتابه الفلك الدائر على المثل السائر، فالنّقض بدأ على مستوى العنوان إذ اعتبر ابن الأثير كتابه مثلا يحتذى به في فنّ تأليف المنثور و المنظوم فسمّاه المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ممّا جعل ابن أبي حديد ينقضه بتسمية كتابه " الفلك الدائر على المثل السائر " أي أن كتابه هذا ما

(1) ينظر في أصول الحوار و تجديد علم الكلام، ص 53.

(2) ينظر الفلك الدائر، ص 39.

(3) ينظر الفلك الدائر، ص 56.

(4) ينظر م.ن، ص 238.

(5) ينظر اللسان و الميزان، ص 240.

صورة سابقه و جعله نسيا منسيا، و ذلك بقلب الأمور رأساً على عقب فكلّ ما اعتبره ابن الأثير كمالات و إبداعات جديدة في كتابه جعله ابن أبي حديد نقصاً و تقصيراً . نستنتج ممّا ذكرناه أنّ هذه المناظرة بلغت المرتبة الثانية من مراتب الحوارية عند طه عبد الرحمان و ذلك نتيجة معرفة المناظر (ابن أبي حديد) مناظره (ابن الأثير) معرفة جيّدة وكذلك الظروف الاجتماعية المشتركة المؤطّرة لعملية التّواصل، فعصرهما عصر ازدهار المناظرات و اكتمال علوم البيان، كما أنّهما نشئا في بلد واحد العراق (الموصل، بغداد) و اشتغلا نفس المهنة (الديوان) بالإضافة إلى الخلفية المعرفية المشتركة (كلاهما فقيه – أديب- شاعر) ممّا ساهم في تنامي الخطاب و تواصله رغم خرق بعض مبادئ المناظرة .

الفصل الثاني

آليات الحجاج في الفلك الدائر على المثل السائر .

المبحث الأول : وسائل الإقناع البلاغية .

- الخلفية المعرفية والثقافية .

- القدرة على الاستدلال .

- أهميّة المقدرة الفنيّة في الكتابة .

المبحث الثاني : آليات الحجاج اللغوية .

- الروابط الحجاجية .

- العوامل الحجاجية .

- السّم الحجاجي .

- أفعال الكلام .

المبحث الأول : وسائل الإقناع البلاغية

مدونة الفلك الدائر على المثل السائر تعليق ونقد لكتاب " المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر" و توسعة لمجال الدراسات النقدية و البلاغية، ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل و غير المؤكّد و المتوقع فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوِّي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تظهر المعنى بطريقة أجلي وأوقع في النفس. كما أنّ الأساليب البلاغية قد يتمّ عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدّي وظيفة لا جماليّة إنشائيّة (كما هو مطلوب في سياق البلاغة) بل هي تؤدّي وظيفة إقناعية استدلالية (كما هو مطلوب في سياق الحجاج) (1). وقد اهتمّ القدماء والمحدثون بإشكالية علاقة الحجاج بالبلاغة، فالخطابة عند أرسطو تضمّنت عناصر حجاجية وأسلوبية، كما أنّ المتنبّع للدرس البلاغي العربي يجد أنّ الحجاج جاء على عدّة صيغ كالبيان و المقام، فالبيان عند الجاحظ يعني "الفهم والإفهام فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع" (2). وعليه فالبيان عنده هو كلّ ما يهدف للتأثير و الإقناع و الاستمالة بما هو معرفي و إقناعي، كما أنّ كلمة " بلاغة " بالمعنى العربي و كلمة " خطابة " بالمعنى الإغريقي، ظهرت عند الغرب و العرب في حقل واحد هو الإقناع، ويقول "روبول" في حديثه عن البلاغة " لن نبحت عن جوهر البلاغة لا في الأسلوب ولا في الحجاج، بل في المنطق التي يتقاطعان فيها بالتحديد، بعبارة أخرى ينتمي إلى البلاغة بالنسبة إلينا كلّ خطاب يجمع بين الحجاج

(1) صابر الحباشة، التداولية و الحجاج، مداخل و نصوص، صفحات للطباعة والنش، سورية، ط 1، 2008، ص 50 .

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفلك، دط، دت، ج 1، ص 76 .

و الأسلوب، كل خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث : المتعة والتعليم والإثارة
مجتمعة متعاضدة، كل خطاب يقنع بالمتعة و الإثارة مدعّمتين بالحجاج" (1) نستخلص
من قول روبول أنّ البلاغة جمال و متعة بالإضافة إلى الحجاج الذي يهدف إلى الإقناع.
و عليه فلا بلاغة بدون حجاج ولا حجاج بلا جمال. وأدرك ابن أبي حديد ما تتوفر
عليه الأساليب البلاغية من خاصية التحوّل لأداء أغراض تواصلية و إنجاز مقاصد
حجاجية وإفادة أبعاد تداولية، فعمل على توظيفها.

ووسائل الإقناع البلاغية الموظفة حجاجيا كثيرة منها : الشاهد - التفرّيع (تقسيم الكل
إلى أجزاءه) - التمثيل (التّشبيه التمثيلي) - الإيجاز - الاستعارة - الجناس -
الطباق - السّجع و الموازنة (المقارنة) - المقام - الترصيع - القياس الخطابي.
وسنحاول بيان عملها (حجاجيا) في كتاب الفلك الدائر على المثل السائر .

1- الخلفية المعرفية و الثقافية:

تعدّ مكتسبات الإنسان المعرفية و الثقافية المختلفة موجّها لأقواله و أفعاله، إذ يظهر أثر
تلك المعرفة فيما يستحضره من شواهد وأدلة وفي اتّخاذ مواقفه من مختلف
القضايا (الرفض أو القبول)، وابن أبي حديد كان مثقفا موسوعيا (فقيه- أديب -شاعر)
وكذلك مناظره ابن الأثير، لذا تعدّدت شواهدهما و اختلفت و سنتناول بعضها بالدراسة
قصد تحديدها و بيان وظائفها.

1-1 الشاهد على ثقافة المناظر:

اعتبر الجاحظ الشاهد عنصرا من عناصر الحجاج، مفهومه مرادف للدليل
و البرهان، فالحجاج البلاغي القائم على الشواهد دعامة لإرساء الحقائق و صرح العلم
و قد أكد أنّ "مدار العلم على الشاهد والمثل" (2) والشاهد عند أرسطو هو "بمثابة القوانين
والشهود، والاعترافات وأقوال الحكماء، أمّا في الخطابة العربية فهو تضمين الآيات
القرآنية والأحاديث وأبيات الشعرو الأمثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها

(1) أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟، ترجمة محمد العمري ضمن كتابه البلاغة الجديدة بين التخييل
والتداول، ص22.

(2) الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص 171 .

من مصدرها و من مصادقة النَّاس عليها و تواترها"⁽¹⁾، ونظرا للطبيعة النقدية لكتاب الفلك الدائر فقد اعتمد المتناظران مجموعة كبيرة من الشواهد المتنوعة، منها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين والحكماء التي كان لها الأثر الكبير في عملية المناظرة والإقناع، وسوف نقوم بعرض بعضها و بيان عملها الحجاجي.

استعمل ابن الأثير القرآن الكريم كشاهد على ما ذهب إليه من آراء ليمنح كلامه مصداقية فقال:⁽²⁾ "و قد اختلف النَّاس في حمل مريم عليها السَّلام كم مدَّته، فقالوا...و الصَّحيح أن حملها ووضعها كانا متقاربين على الفور من غير مهلة... لقوله تعالى: (فحملته فانتبذت به مكانا قصيًّا، فأجاءها المخاض إلى جذع النَّخلة)⁽³⁾لأنه عطف بالفاء وهي للفور."فابن الأثير استدلَّ بهذه الآية ليدلَّ على مدَّة حمل مريم لأنها أقوى حجَّة وأفضل دليل لإقناع المتلقي ذلك أن المتلقي لا يستطيع الشكَّ في كلام الله عزَّ و جلَّ لأنَّ ما يقوله هو الحقَّ المبين وحتى يصل المتكلم إلى مبتغاه و مراميه الحجاجية وهي إثبات قرب مدَّة حمل مريم ووضعها اعتمد التخريج البلاغي المتمثَّل في عمل الفاء و هو الفوريَّة، فتوظيفه كرابط بين الحمل و الوضع دلَّ على قرب الأحداث و تتابعها من غير فاصل زمني، و قد ردَّ مناظره ببطلان قوله مستدلا بآيات قرآنية قال ابن أبي حديد⁽⁴⁾أقول:إنَّ الفاء ليست للفور بل هي للتعقيب....ألا ترى قوله تعالى:(لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب)⁽⁵⁾، والعذاب مترخ عن الإفتراء وقال:(فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتَّبع هواه فتردى)⁽⁶⁾

(1) ينظر محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي،مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، إفريقيا الشرق، المغرب 2، 2002، ص 65.

(2) ينظر المثل السائر، ص 230 .

(3) سورة مريم، الآية 23 .

(4) ينظر الفلك الدائر على المثل السائر، ص 226 .

(5) سورة طه، الآية 61 .

(6) سورة طه، الآية 16 .

والردي متراخ عن الصدّ عنها، وقال: (وأُنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتّى) (1) وليس خروج النبات عقب إنزال المطر بل هو متراخ عنه وقال: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي..)(2) ولم يكن النسيان عقب العهد، فإنه دام مكثه متجنباً الشجرة التي نهى عن أكلها مئة عام، ثم أكلها، وفي القرآن من هذا الجنس الكثير الواسع (3). فابن الأثير استشهد بأية قرآنية لبيان قرب حمل مريم عليها السلام ووضعها، وهي حجة قوية تدعم طرحه ليقنع المتلقي ويفهمه، إذ لا مجال للشك أو الطعن في كلام الله عز وجل، لكن (ابن أبي حديد) تفتن إلى التخرّيج البلاغي الذي اعتمده (ابن الأثير) المخاطب، وجعله مدخلا للنقض والطعن مستدلاً بآيات عديدة من سورة طه على سبيل المثال لا الحصر (لأنه قال: وفي القرآن من هذا الجنس الكثير الواسع) وبهذا استطاع إقناع المتلقي بصحة دعواه و بطلان دعوى مناظره .

و مثلما اعتمد المتناظران على الشاهد القرآني لجأ إلى الحديث الشريف باعتباره المرجع الثاني للمصادقية، فابن الأثير عند حديثه عن الأقسام الثلاثة في تأويل المعنى استدلل على القسم الثاني منه (دلالة اللفظ) على المعنى و ضده بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام" (4) فقال اللفظ قد يتأول في المعنى و ضده و قد يتأول على المعنى وغيره الذي ليس بضدّ والأول أغرب و أظرف، فهذا الحديث يستخرج منه معنيان ضدّان أحدهما أنّ المسجد الحرام أفضل من مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم والآخر أنّ مسجد رسول الله أفضل من المسجد الحرام..... فابن الأثير ساق هذا الحديث للنبي صلى الله عليه و سلم حتى يقوّي حجّته و يثبت صحّة دعواه من خلال مصادقية الضامن (الحديث) .

(1) سورة طه، الآية 53 .

(2) سورة طه، الآية 115 .

(3) الفلك الدائر على المثل السائر، ص 264 .

(4) ينظر المرجع نفسه، ص 56 - 57 . (بتصرف)

ومن نفس الشاهد (الحديث الشريف) انطلق مناظره ابن أبي حديد وأقرّ ببطلان ما ذهب إليه مناظره (ابن الأثير) ورآه ضرباً من التّوهم فقال: "ليس الأمر كما توهمه هذا الرّجل و إنّما يدلّ الحديث على أنّ حكم المسجد الحرام مخالف لهذا الحكم الذي قد حكم به صلّى الله عليه و سلّم في حقّ مسجده و باقي المساجد، لأنّ تقدير الكلام كلّ مسجد في الأرض إذا صلّى فيه ألف صلاة فهي في الفضيلة دون الصّلاة الواحدة في مسجدي واستنتى من هذا الحكم المسجد الحرام فدلّ في المطابقة على أنّ المسجد الحرام يخالف باقي المساجد في هذا الحكم" (1) فابن أبي حديد لم يطعن في مصداقيّة الحديث الشريف بل فيما ذهب إليه مناظره (ابن الأثير) من تأويل، حيث أوّل معنى الحديث تأويلاً مناقضاً لسابقه ممّا يظهر أثر المعرفة و الثقافة في توجيه المعاني و تأويلها وتعدّد زوايا تناولها، ففي التّرجيح بين المعاني مثلاً (ما يستدلّ عليه بقرينة ليست من توابعه) استدلّ ابن الأثير على ذلك بقوله صلّى الله عليه و سلّم "من جعل نفسه قاضياً للمسلمين فقد ذبح بغير سكّين" (2)..... قال: فلما اشترك القضاء و الذّبح في الألم الشديد وكان الذّبح الحقيقي هو قطع الحلقوم، والقضاء هو قطع النفس عن هواها لا جرم كان الشخص الذي يجعل قاضياً مذبوحة ذبوحاً معنوياً، فغاية ابن الأثير بيان صعوبة القضاء (بدلالة قرينة ليست من توابعه الذّبح) لذلك قدّم الحديث الشريف كحجّة قويّة ليقنع المتلقي ويؤثّر فيه، ممّا دفع مناظره (ابن أبي حديد) إلى الردّ عليه متعجباً من هذا التّخريج المعنوي لابن الأثير فقال: "و كيف يجوز أن ينسب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وآله أنه أراد هذا المعنى؟ وهل هذا إلاّ في قوّة أن يقال من رتب قاضياً فإنّه يتعب، ويجد مشقّة، وينقطع عليه كثير من أوقات راحته؟" (3) ثمّ رجّح معنى آخر واستدلّ عليه بوقائع خارج نصيّة بقوله: "و معلوم أنّه إنّما أخرج هذه اللفظة مخرج التّحذير لأصحابه من القضاء لما فيه من التّعرض للآثام و المؤاخذه الأخرويّة،.. لذلك كان الصّحابة و التابعون رضوان الله عليهم يتأذّون من القضاء و يفرّون منه

(1) ينظر الفلك الدائر على المثل السائر، ص 74 - 75 .

(2) ينظر المرجع نفسه ، ص 76 .

(3) ينظر المرجع نفسه ، ص 75 .

ويستترون الدَّهر الأطول إذا ندبوا إليه ويتحمّلون مشقّة الهرب ومفارقة الأوطان حذرا من عقاب الآخرة لا غير، و كيف يحذّر رسول الله أصحابه و أمته من الدخول في القضاء لكونه مجاهدة لهوى النفس و كونه يورث التعب و المشقة الدنيوية، وهو يأمرهم بالجهاد و مناهضة المشركين و قتل آبائهم و أولادهم و إخوانهم طاعة لله ورسوله⁽¹⁾ بقوله: وذلك أصعب و أشقّ من متاعب القضاء بأضعاف مضاعفة، وهم مأمورون به لما فيه من ثواب الجهاد، فكذلك القضاء متاعبه و مشاقه مغمورة بما فيه من ثواب الانتصار للحكم بالحق و نصرّة المظلوم، وإقامة شعائر الإسلام⁽²⁾، فابن أبي حديد تمكّن من ترجيح ما ذهب إليه من معنى (صعوبة القضاء ليست في متاعبه الدنيوية ولكن لما فيه من التعرّض للآثام و المؤاخذه الأخروية) بفضل ما وظّفه من عوامل خارج نصيّة مصدرها سعة ثقافته، و في الكتاب شواهد كثيرة من السنّة النبوية اقتصرنا على ما ذكرناه على سبيل المثال لا الحصر.

ومن أقوال التابعين (في باب الكلام الموجّه - له وجهان -) ما يحكى أنّ عبد المسيح بن بقلية دخل على خالد بن الوليد بالحيرة فقال له خالد: من أين أقصى أترك؟ قال: من ظهر أبي قال: من أين خرجت؟ قال من بطن أمي....⁽³⁾ فقال خالد: ما رأيت كاليوم قطّ، أنا أسأله عن الشيء وهو ينحو في غيره⁽⁴⁾، وهذا من توجيه الكلام على نمط حسن، وهو يصلح أن يكون جوابا لخالد عمّا سأل، و يصلح أن يكون جوابا لغيره، فابن الأثير استشهد بقول خالد بن الوليد ليستمدّ قوّة حجّته من سلطة قائلها فنكون أوقع في نفس المتلقي و أجدى للإقناع.

فردّ عليه ابن أبي حديد بأنّ "اللفظ الذّي يحمل على المعنى و غيره في هذه الحكاية هو ألفاظ خالد علام أنت؟ يحتمل أن يريد به على أيّ حال أنت، أو على أيّ دين، أو على أيّ عزم، و يحتمل أن يريد به على أيّ مكان أنت، وكذا بقلية الألفاظ، فعبد المسيح

(1) ينظر الفلك الدائر، ص 75 ..

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(3) ينظر المرجع نفسه، ص 67 .

(4) المثل السائر، مرجع سابق، ص 68 .

ترك ما علم أنه غرض خالد، و عدل إلى المحمل الآخر الذي يعلم أنه ليس بغرضه... فقول المصنّف هو يصلح أن يكون جواباً لخالد إشارة بغير شك إلى أنّ ألفاظ عبد المسيح ليست موجّهة بل الموجّه ألفاظ خالد، لأنها هي المحتملة الأمرين... كما أنّ هذه الأجوبة لا تصلح أن تكون أجوبة لخالد، لأنّ خالد سأل عن أمر فأجاب عبد المسيح عن غيره⁽¹⁾ فابن أبي حديد اعتمد في تتبّع قول مناظره (ابن الأثير) دقّة الملاحظة وهي إحدى سمات أصحاب الرّدود إذ يجب على المحاجج فهم الأقوال و تدبّرها قصد بيان نقاط ضعفها حتى تكون مدخلا للنقض وهي دلالة أخرى على المعين الثقافي وفي نفس السّياق قال ابن الأثير "ومما يجري على هذا النهج ما حكى عن أفلاطون أنه قال : ترك الدّواء دواء - فذهب بعض الأطباء إلى أنه أراد أنه إذا لطف المزاج و انتهى إلى غاية فهو دواء فتركه حينئذ و الإضراب عنه دواء، وذهب آخرون إلى أنه أراد بالتّرك الوضع، أي وضع الدّواء على الدّاء دواء، يشير ذلك إلى حذق الطبيب في أوقات علاجه، فالشّاهد هنا على الكلام الموجّه، قول الحكيم أفلاطون الذي يعدّ حجة قويّة مؤثّرة تستمدّ مصداقيتها من المنزلة العلمية لقائلها.

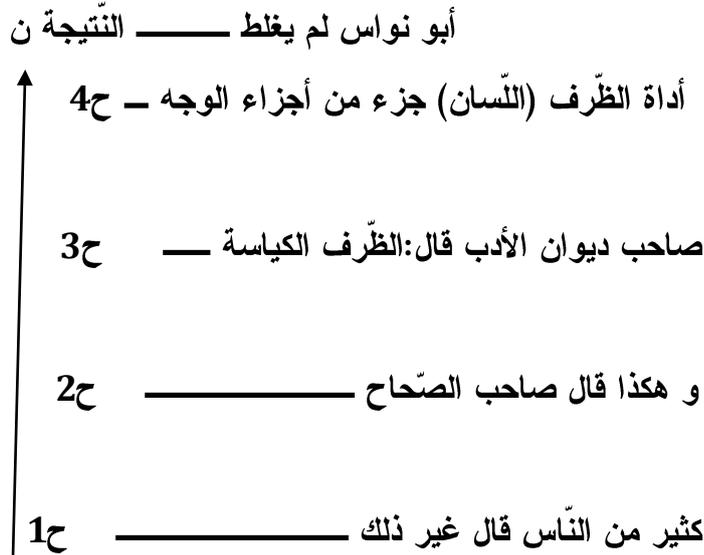
فردّ عليه ابن أبي حديد ببطلان ما ذهب إليه، وهو أنّ المراد ظاهر كقول العامّة دائماً و هو أنّ ترك التداوي حيث لا حاجة إليه هو التداوي بعينه واستشهد بقول الطبيب اليوناني "جالينوس": الحمية في الصّحة كالتخليط في المرض" فابن أبي حديد دحض حجة مناظره بحجّتين الأولى قول العامّة و ذلك بتغليب رأي الأكثرية، فمصداقيتها مكتسبة من الإجماع عليها، والثانية قول الطبيب جالينوس وتعدّ حجة أقوى وأكثر مصداقيّة لأنها صادرة عن مختصّ ممّا يبطل دعوى ابن الأثير أنّ هذا الكلام موجّه وهذا دليل آخر على الثقافة الموسوعيّة للمناظر إذ يعدّد مصادر الشاهد و يحسن توظيفها. وفي حديث ابن الأثير عن المبتذل من الألفاظ قال: وقد غلط أبو نواس في لفظة الظرف فقال:

اختصم الجود و الجمال فيك فصارا إلى جدال .

(1) ينظر الفلك الدائر، ص 68.

- فقال هذا يمينه لي للعرف و البذل و النوال .
 و قال ذاك وجهه لي للظرف و الحسن و الكمال .
 فافترقا فيك عن تراض كلاهما صادق المقال .

فوصف الوجه بالظرف، والظرف من صفات النطق خاصة، وليس كما يتوهمه العامة من حسن الصورة و دمائه الأخلاق، وهذا غلط لا يوجب في اللفظة قبحا، لكنه جهل بمعرفة أصلها في وضع اللغة (1). فردّ عليه ابن أبي حديد بأنّ هذا الذي ذكره قد قاله كثير من الناس، وقال كثير من الناس غير ذلك. فإنّ صاحب ديوان الأدب قال: الظرف الكياسة، ولم يزد على ذلك. وهكذا قال صاحب الصّاح، ومعلوم أنّ الكياسة لا تكون راجعة إلى النطق اللساني خاصة. وعلى كلّ حال فأبو نواس لم يغلط لأنّ أداة الظرف وهي اللسان على ما يريد جزء من أجزاء الوجه. فابن الأثير غلطّ أبا نواس لجهله معرفة أصل كلمة الظرف في وضع اللغة، فردّ عليه ابن أبي حديد بتوظيف أقوال العلماء— صاحب ديوان الأدب وصاحب الصّاح(2). ويمكن تمثيلها كما يأتي:



(1) المثل السائر، ج1، ص 198.

(2) ينظر الفلك الدائر، ص 177 .

* عبارة ابن الأثير : فأبو نواس غلط هاهنا في أنّه وصف الوجه بالظرف، وهو من صفات النطق، وأبو تمام غلط في أنّه وصف الخلق بالظرف، وهو من صفات النطق أيضا إلا أنّ هذا غلط لا يوجب في اللفظة قبحا، لكنه جهل بمعرفة أصلها في وضع اللغة. ينظر المثل السائر، ج1، ص 198 .

وفي باب القول الذّي يحتمل المدح والذمّ خاصّة ما تعلق بذكر الجذّ و مساعدة الأقدار (حجج ابن الأثير سنوردها في موضع لاحق مع نفس الموضوع) ردّ ابن أبي حديد على مناظره (ابن الأثير) بقوله واعلم أنّ الشعراء مازالت على قديم الدهر و حديثه يمدحون الرّئيس بعلوّ جذّه و مساعدة الأقدار له و مطاوعة الكواكب و الأفلاك و الدهر لإرادته و ليقعوا الرّعب منه في الصّدور و الخوف في القلوب إلى أن ينخذل من يناوئه من غير حرب ولا كيد⁽¹⁾. ولإعطاء مصداقيّة و قوّة أكبر لدعواه (النتيجة) وظّف حجّة قويّة تستمدّ مصداقيّتها من الواقع، فقال "وقد روي أن ملك الصين عرض عسكريه إلى الإسكندر فاستعظمه و رأى ما هاله، فقال قد كنت قادرا على أن أصادمك بهذه العساكر العظيمة لكنّي رأيت الأفلاك ناصرة لك، فرأيت ألا أحارب من تنصره، ثمّ أعطاه الطّاعة، ودفع إليه الإتاوة"⁽²⁾. فهذه الرواية (الحادثة) تعدّ حجّة داعمة للدعوى المطروحة (النتيجة المراد بلوغها).

إنّ ما سبق ذكره من شواهد قرآنية و أحاديث نبويّة و أقوال الصّحابة و التابعين و كذا الشّواهد الشعرية و التاريخية يعدّ حججا جاهزة أو غير صناعيّة كما قال أرسطو "وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها و من مصادقة النّاس عليها وتواترها"⁽³⁾. و لما كان الشعر ديوان العرب كثر الاستشهاد به، ففي باب أقسام تأويل المعنى عندما أراد ابن الأثير بيان دلالة اللفظ على المعنى و ضدّه استشهاد بقول المتنبيّ في قصيدة يمدح بها كافور الإخشيدي :

و أظلم أهل الظّلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلّب .

قائلا وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدّان أحدهما أنّ المنعم عليه يحسد المنعم والآخر أنّ المنعم يحسد المنعم عليه، كما أورد قوله في قصيدة أخرى يمدحه فيها:

فإن نلت ما أمّلت منك فربّما شربت بماء يعجز الطّير ورده .

(1) ينظر الفلك الدائر على المثل السائر، ص 65 .

(2) الفلك الدائر على المثل السائر، ص 65 .

(3) محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الاقناعي، مرجع سابق، ص 90 .

وقال هذا البيت يحتمل مدحا و ذما، فإن أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فإنه يكون بالذم أولى منه بالمدح {.....}. وإذا نظر إلى ما قبله دلّ على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذي قبله (1). فردّ عليه ابن أبي حديد بقوله إنّ هذين المعنيين ليسا بضدّين لأنّه يجوز اجتماعهما معا فيكون المنعم و المنعم عليه كلّ واحد منهما يحسد صاحبه وكذلك سياق الشعر يقتضي أنّه أراد أنّ المنعم عليه يحسد المنعم لأنّه قال:

تريد بك الحساد ما الله دافع
و سمر العوالي و الحديد المذرب
إذا طلبوا جدواك أعطوا و حكموا
و لو جاز أن تعطى علاك وهبتها
و أظلم أهل الظلم من بات حاسدا
و لكن من الأشياء ما ليس يوهب
لمن بات في نعمائه يتقلب

فهذا يدلّ على أنّ الممدوح يعطي هؤلاء و هم يحسدونه، وإذا كانت السّيّاقة تدلّ على أنّه أراد هذا المعنى خرج من كونه دالّا على معنيين ضدّين كما حكم به في البيت المتقدّم. فهنا وظّف ابن أبي حديد حجة خصمه نفسها (السياق الشعري) ليدحض حجّته مستدلاّ بالشواهد الشعرية (2). وسنورد مثالا آخر في نفس الباب: قال ابن الأثير و قد قال أبو الطيّب في كافور:

فمالك تعنى بالأسنة و القنا
و مالك تختار القسيّ و إنّما
وجدك طعان بغير سنان
عن السعد يرمى دونك الملوان (3).

فإنّ هذا يحتمل المدح و الذمّ، بل هو بالذمّ أشبه و أكثر ما كان المتنبي يستعمل هذا الفنّ في القصائد الكافوريات معتمدا في ذلك حكاية ابن جني (أبو الفتح) الذي قال: قرأت على أبي الطيّب ديوانه إلى أن وصلت إلى قصيدته التي أولّها :

أغالب فيك الشوق و الشوق أغلب
و أعجب من ذا الهجر و الوصل أعجب.
فأتيت منها على هذا البيت و هو:

(1) ينظر المثل السائر في أدب الكتاب و الشاعر، ج 1، ص 65 .

(2) ينظر الفلك الدائر على المثل السائر، ص 58-59 .

(3) رواية الديوان تقديم البيت الأوّل على الثاني و فيه (يرمي دونك التقلان) وفي كتاب المثل السائر ج1، ص 65 . بدأ بالبيتين الاثنتين ثمّ أورد البيت الأوّل .

و ما طربي لَمَّا رأيتك بدعة
لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب .
فقلت له: يا أبا الطيّب لم تزد على أن جعلته أبازنة، فضحك لقولي، فردّ ابن أبي حديد
ببطلان ذلك لأنّ معظم شعر المتنبي بهذه الصيغة و قد قال مثل هذا في سيف الدولة
الحمداني وفي عضد الدولة أبي شجاع وهو أعظم ملكا من سيف الدولة وأشدّ بأسا
و أكثر انتقادا للشعر. ولإثبات صحّة نقضه وظّف شواهد شعرية عدّة للشاعر نفسه
(المتنبي) منها قوله في سيف الدولة:

و لقد رمت بالسّعادة بعضا
من نفوس العدا فأدركت كلاً
و قوله :

إذا سعت الأعداء في كيد مجده
سعى جدّه في كيدهم سعي محنق
و ما ينصر الفضل المبين على العدا
إذا لم يكن فضل السعيد الموفق⁽¹⁾
فهذه الأبيات كلّها تطابق ما قاله في كافور و أكثر، إذ أن الحظّ و التوفيق و السعادة
عناصر للنّفوقّ و الغلبة. وقد صرّح في قصيدة - أخرى - يمدح فيها عضد الدولة
بأنّه يقهر الأعداء بالجدّ فقط في قوله:

إن كان لم يعمد الأمير لما
لقيت منه فيمن عامد .
فلا يبل قاتل أعاديه
أقائما نال ذاك أم قاعد⁽²⁾.

لقد اقتصرنا على هذه النماذج الشعرية رغم كثرتها قصد بيان حجّية الشاهد الشعري
و دوره الفعّال في عملية التأثير والإقناع، فهو بمثابة القوانين والشهود، وقد ربط أبو
هلال العسكري الحجاج بالشعر لما للشعر من وظيفة حجاجية كبيرة حيث يقول "و هو
الذي يملك ما تعطف به القلوب النّافرة ويؤنس القلوب المستوحشة وتلين به العريكة
الأبيّة المستعصية و يبلغ به الحاجة و تقام به الحجّة " (3). وقد تتنوّع الشواهد وتتعدّد
كقول ابن الأثير: و قد خفي على أبي الطيّب أمر ظاهر فقال يصف ناقة:

(1) ينظر، الفلك الدائر على المثل السائر، ص 61 .

* و معنى البيت الثاني أنّ من قتل أعاديه لا يبالي أقتلهم قائما أم قاعدا، بنفسه أم بغيره .

(2) م ، ن ، ص 62 .

(3) أبو هلال العسكري "كتاب الصناعتين" تحقيق علي محمد الجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1
2006، ص49.

و تکرّمت ركباتها عن مبرک
تقعان فيه و ليس مسکا أذفرا.
فجمع في حال التنثية فقال ركباتها - و ليس للناقة إلا ركبتيان، فردّ عليه ابن أبي حديد
بقوله: إنّ هذا من اتّساع العرب ومذاهبها غير بعيد، كقولهم: امرأة ذات أوراك، وهما
وركان، وقال الشاعر :

فتى قدقد السيّف لا متضائل و لا رهل لبّاته وبآدله .

و قد جاء مثله في حكم داوود و سليمان في الغنم التي نفشت في الحرث "وكنّا لحكمهم
شاهدين" ⁽¹⁾، فقد وظّف المناظر حججا مختلفة و متعدّدة لكلّ منها مصداقيتها التي لا
تدع مجالاً للشكّ و هذا دلالة على اتّساع المعرفة :

1 - الأدبية: كلام العرب، الشعر .

2 - الشرعية: الشاهد القرآني .

فالحجج جاهزة لكنّ المناظر يختارها و يوجّهها إلى الغرض المراد
الاستدلال عليه، و من هنا فتقافة المناظر ضرورية لفهم الخطاب و تأويله ثمّ الرّد
عليه بما ينقضه، إذ كلّما زاد الرّصيد المعرفي و الثقافي لدى المناظر سهل عليه توجيه
الخطاب نحو الغرض المقصود، وقد لاحظنا من خلال بعض الرّدود كيف كان ابن أبي
حديد يوجّه الخطاب لصالحه (كلفظة الظّرف في بيت أبي نواس) منتهيا ببناء حجج
مناقضة، تؤدّي إلى النتيجة المقصودة.

1-2 دور المقام في تحديد طبيعة المقال:

انتبه العرب منذ القديم إلى المقام ومقتضى الحال، فنجد الشاعر طرفة بن العبد أوّل
من ذكر مناسبة المقام للمقال في لاميته، كما تحدّث البلاغيون العرب عنه أيضا إذ
يقول أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" " و اعلم أنّ المنفعة مع موافقة الحال
وما يجب لكلّ مقام من مقال، فإذا كنت متكلمًا أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض
ما تصلح الخطب أوقصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخطّ ألفاظ المتكلمين مثل الجسم

(1) الفلك الدائر، ص 46 .

والعرض والكون والتأليف والجوهر فإن ذلك هجنة" (1)، فأبو هلال العسكري يدعو إلى مناسبة المقال المقام، فالخطيب أو الشاعر يتخير الألفاظ و العبارات الملائمة للموقف أو الحالة والوضعية التي يلقي خطابه فيها وكذا نوع المتلقي باعتباره متلقف الخطاب و مفككه ومؤوله. وقد عرض السكاكي المقام في مؤلفه "مفتاح العلوم" فقال: "و لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية..... ومقام المدح يباين مقام الذم.... وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر، ثم إذا شرعت في الكلام، فكل كلمة مع صاحبها مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال" (2) لقد أكد السكاكي ما ذهب إليه أبو هلال العسكري في قضية المقام وزاده وضوحا و بيانا فيما يخص العلاقات التواصلية وارتباطها بأشكال الاتصال ومقتضيات الأحوال، فالتشكيل اللغوي للخطاب يختلف باختلاف المقام الذي يتغير بتغير المتلقي، فالخطاب الموجّه لسيد الأمة يختلف عن ذلك الموجّه إلى العامة، والخطاب في المسجد مثلا غير الخطاب في السوق.... الخ. وما هذا التنوع إلا للتأثير والإقناع، كقول ابن الأثير معارضا لكتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيساني "ومن جملتها ما فعله الخادم في الدولة المصرية، و قد قام بها منبر وسرير، وقالت منّا أمير و منكم أمير، فردّ الدعوة العباسية إلى معادها..... فانظر إليّ كيف أتيت فيه بكلام الحباب بن المنذر الأنصاري حيث قال يوم السقيفة للمهاجرين: منّا أمير و منكم أمير.... فقال أبو بكر: بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء..... و عجيب من عبد الرحيم بن علي البيساني مع تقدّمه في فنّ الكتابة كيف فاته أن يأتي به في كتابه(3).

(1) ، كتاب الصناعتين، مرجع سابق، ص 135 .

(2) أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، ص 168 .

(3) ينظر الفلك الدائر، ص 54 .

فالمقام هنا مقام علم و معرفة و ثقافة، ندرك ذلك من تعجب ابن الأثير ممّا فات عبد الرحيم بن علي البيساني (الكاتب المعروف) إذ يمكن ترجمة هذا التعجب و الاستفهام الإنكاري (عجيب كيف) إلى نتيجة مفادها أنا الأوسع ثقافة والأعزر علما و حجّتين :
* تمثيلي ما وقع بين الفاطميين و العباسيين بما وقع يوم السقيفة بين المهاجرين و الأنصار.

* عدم إيراد أبي علي لما أوردته.

لكنّ ابن أبي حديد وظّف المقام لدحض ما ذهب إليه مناظره (ابن الأثير) بقوله: إنّ القاضي الجليل الفاضل النبيل أبا علي عبد الرحيم كان موقفاً حيث لم يذكر ما ذكره هذا الرجل و أعجب به و ذلك أنّ الحباب بن المنذر والأنصار راموا أن يكون منهم أمير و من المهاجرين أمير، وملوك الدولة الطالبية بمصر لم يقتصروا على أن يكون منهم خليفة ومن الأئمة العباسيين خليفة بل كانوا يدعون أنّ الخلافة ليست إلاّ لهم خاصة دون غيرهم، وما زالت الحرب بين الفريقين قائمة والمهج سائمة على ذلك، ولو لم يكن إلاّ ما جرى في الأيّام القائمة لكفى. " فكيف كان القاضي الفاضل ممّن يذهب عليه هذا ويشبهه واقعهم بواقعة الأنصار.. وإنما ترصّع الرّسالة بالوقائع والأيّام المشهورة إذا كانت مطابقة للحال الحاضرة، لا إذا كانت مخالفة⁽¹⁾.

إذا كان المناظر الأول (ابن الأثير) قد استغلّ سلطته المعرفية لبيان مطابقة المقام المقال فإنّ مناظره (ابن أبي حديد) قد دحض دعوى خصمه بإثبات فساد حجّته، ذلك أنّ المقام يخالف المقال لذا عدل أبو علي عن ذكره في كتابه الذي كان موضع الجدل بين المتناظرين- و يدعم هذا ما أوردناه في باب المقام عند العرب- فكلّ مناظر وظّف المقام حسب ما يخدم مقاله بغية استمالة المتلقي والتأثير فيه. كما ذكر ابن الأثير في باب تأوّل اللفظ في المعنى وضده قول أبي الطيب المتنبي في كافور:

فمالك تعنى بالأسنة و القنا و جدك طعان بغير سنان.
و مالك تختار القسي و إنما عن السعد يرمي دونك الثقلان.

(1) ينظر الفلك الدائر، ص 54 - 55 .

فإنّ هذا يحتمل المدح والذم بل هو بالذم أشبه، لأنّه يقول إنّك لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك، بل بجدّ وسعادة وهذا لا فضل فيه، لأنّ السعادة ينالها الخامل والجاهل ومن لا يستحقّها وأكثر ما كان المتنبي يستعمل هذا الفنّ في القصائد الكافوريات⁽¹⁾. فالمقام هنا مقام علم و معرفة، إذ مثل (ابن الأثير) القول بنموذج من شعر المتنبي ثمّ أكّد على كثرة استعماله في القصائد الكافوريات، فما أورده ابن الأثير في مقدمة كتابه - المثل السائر - من أحكام على عدّة شعراء منهم المتنبي دليل على مدى اطلاعه وجودة معرفته لفنّ المنظوم كما أنّه شاعر، وبحكم هذه الثقافة الواسعة أكّد على كثرة استعمال هذا النوع من الشعر في القصائد الكافوريات .

مما يؤكد على أنّ المقام لا يمكن أن يدرك و يصبح آلية (حجاجية) دون ثقافة و معرفة سابقة. فردّ عليه مناظره (ابن أبي حديد) قائلاً "إنّ الناس واقع لهم واقع ظريف مع المتنبي في هذا الباب، وكان أصله الشيخ أبو الفتح عثمان بن جني رحمه الله، فإنّه نبّه المتنبي ولم يكن ذلك لبغضه كافورا وحنقه عليه فصار فيه حديث طويل وزعم من جاء بعده أنّ المتنبي كان يقصد ذلك ويتعمّده ويمدحه بالشعر الموجّه الذي يحتمل المدح والذم، ومنهم من يزعم أنّ كافورا كان يتفطن لذلك ويتغاضى عنه، وينقلون هذا عن المتنبي، وما كان ذلك قطّ ولا وقع شيء منه، ولا قصد أبو الطيّب نحو ذلك أصلاً فأما هذان الشيطان فقد قال في سيف الدولة أبي الحسن مثلهما كثيرا نحو قوله: ولقد رمت بالسّعادة بعضاً من نفوس العدا فأدرت كلا .

و لكنّ سيف الدولة لما اشتهر بإخلاص أبي الطيّب في ولائه له عدل الناس عن هذا الشعر الذي يتضمّن ذكر الجدّ والحظّ، فلم يذكره ولم يجعلوه موجّها ولو تأملت الأشعار كلّها وأردت أن تستنبط منها ما يمكن أن يكون هجاء لقدرت⁽²⁾.

على عكس المناظر الأوّل (ابن الأثير) فقد أورد خصمه أبياتا شعرية كثيرة في مدح سيف الدولة وعضد الدولة أبي شجاع وهو أعظم ملكا وأشدّ بأسا وأكثر انتقادا

(1) ينظر الفلك الدائر، ص 60 .

(2) ينظر المرجع نفسه، ص 60 - 61 .

للشعر⁽¹⁾. مماثلة لما ذكره مناظره في مدح المتنبى كافورا (بالجدّ والسعادة ومساعدة الأقدار.....) ثم بيّن سبب هذا التباين و التفسير ألا وهو المقام، فلمّا كان المقام مقام بغض بين المتنبى وكافور فسّر شعره على أنه موجّه (بل بالذمّ أشبه) والعكس مع سيف الدولة و عضد الدولة، فالمقام مقام ودّ وإخلاص- فشعره مدح - مع أنّ الشعر واحد غير مختلف، ومن هنا نتبيّن دور المقام في تحديد طبيعة المقال بل وتأويله إذ يعدّ المحدّد لزاوية نظر المتلقي والمؤثر في طريقة تفكيكه المقال و تأويله .

فابن أبي حديد فهم مقال ابن الأثير وأدرك بنيته التأويلية (علاقة المقام بالمتلقي) ثم بنى حججه المضادة انطلاقاً من حجج مناظره إذ يرى أنّ ما ذهب إليه لا أساس له من الصحة فاستدلّ بشواهد شعريّة عديدة عن الحظّ والسعادة قالها الشاعر نفسه في سيف الدولة بل بعض الأبيات نفسها قيلت في حضرة ملوك و أمراء مختلفين، إلاّ أنّها أولت تأويلات مختلفة، ممّا يؤكّد أنّ المقام يتغيّر بتغيّر المتلقي وبحسب العلاقات التواصلية وارتباطها بأشكال الاتصال ومقتضيات الأحوال وهي إحدى قواعد التّخاطب المتفرّعة على مبدأ التعاون و تتمثّل في قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال و.هي: ليناسب مقالك مقامك⁽²⁾.

1-3 الموازنة استعراض معرفي ثقافي:

الموازنة من آليات الحجاج البلاغية إذ يعمد المخاطب إلى مقارنة أقواله بأقوال غيره (المخاطب متعدّد) معدّدا مزايا أقواله و أفضليته أو مستميلا المتلقي حتى دون بيان تلك الأفضلية، ومنها الموازنة التي أجراها ابن أبي حديد بين نشره ونثر مناظره (ابن الأثير) في حلّ بيتي المتنبى في وصف قلعة الحدث .

بناها فأعلى و القنا يقرع القنا
و موج المنايا حولها متلاطم .
و كان بها مثل الجنون فأصبحت
و من جنث القتلى عليها تائم⁽³⁾.

(1) ينظر الفلك الدائر، ص 61 - 62 - 63 .

(2) ينظر طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان، ص238.

(3) من قصيدته في مدح سيف الدولة لما بنى ثغر الحدث و مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم و تأتي على قدر الكرام المكارم .

1 - نثر ابن الأثير: "بناها و الأسنة في بنائها متخاصمة، وأمواج المنايا فوق أيدي البانين متلاطمة، فما أحلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد وأصببت بمثل الجنون فعلقت عليها تمائم من الرؤوس و الأجساد و لا شك أن الحرب تعرّد عنّ عزّ جانبه، وتقول ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه"⁽¹⁾.

2 - نثر ابن أبي حديد: "حماها فأجلى، وبنها فأعلى، ونيران المران تضطرم و أمواج الأرماع تلتطم، وشبا الظبا يصطدم، ولظى الوغى يحتدم، فقرت بعد انزعاجها، وسلمت بعد ارتجاجها، وشفيت من ألمها، وبرئت من لمها، وأصبحت متقلدة بغمائم من أشلاء الفوارس، تدفع عنها عين العائن ونفس الناقس، وليست كقلائد عراف اليمامة وعراف نجد، ولكنها قلادة طرفها الشرف وواسطتها المجد"⁽²⁾. وبعد إضافة محلول آخر (لكل منهما) لمنظوم المتنبي (البيتين السابقين) قال: ومن عنده أدنى ذوق في فنّ الكتابة يعرف الفرق بين كلامنا وهذا الكلام.

فابن أبي حديد (الأديب، الشاعر، الناقد) بهذا الكلام جعل المتلقي مجبرا على الوقوف إلى جانبه والافتناع بأفضلية حلّه لمنظوم المتنبي بفضل سلطته المعرفية، إذ جعل المتلقي بين أمرين أحلاهما مرّ، إقراره بأفضلية كلام ابن أبي حديد على ابن الأثير أو بعدم امتلاكه (المتلقي) أدنى ذوق في فنّ الكتابة (جهل تام) والمرجح الرأي الأول بلا شك. كذلك للسلطة المعرفية أثرها على المتلقي فهي نوع من الثقة الاجتماعية و العلمية تجعله يذعن للمخاطب و يسلم بأرائه.

ويمكن أن تكون الموازنة بين قولين لشخص واحد كقضية العطف بالفاء للفور وثمّ للتراخي والمهلة، كقول ابن الأثير: ومن هذا الباب قوله تعالى (و لقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين، ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ثمّ خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثمّ أنشأناه خلقا آخر).

(1) الفلك الدائر، ص 103 .

(2) ينظر م . ن، ص 102

ثمّ اعترض على نفسه فقال: قد وردت آية أخرى بلفظة ثمّ لهذه التقلّبات بعينها، وهي قوله تعالى: (إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة) ثمّ أمسك عن الجواب، فلم يقل شيئاً، فالمناظر-ابن أبي حديد- هنا دحض دعوى مناظره بفضل الموازنة بين أقواله فجعل كلامه الثاني حجّة (نقيض كلامه الأوّل) عليه ويمكن تمثيلها كما يأتي:

في الآية الأولى ثمّ تستعمل للعطف عند التراخي بين المرحتين والفاء للفور. في الآية الثانية نفس المراحل ذكرت معطوفة كلّها بثمّ .

النتيجة: الفاء ليست للفور بل للتعقيب. فابن أبي حديد اعتمد في توجيه الحجاج لصالحه الموازنة بين قولين متناقضين لنفس الشخص في نفس القضية وهذا ما لا يقبله العقل والمنطق، وبذلك أخلّ ابن الأثير بضابطين هامّين من ضوابط التّداول الحجاجي وهما: * يجب ألاّ يقع المرسل في التّناقض بقوله أو بفعله .

* موافقة الحجاج لما يقبله العقل، وإلاّ بدأ زيف الخطاب ووهن الحجّة.

فالموازنة: استعراض معرفي ثقافي يمكن اعتماده آية حجاجيّة.

1-4 التّرصيع استحضار للمعرفة:

ويعني به تضمين الكتابة شيئاً من القرآن و الأحاديث النبويّة والحكم والأمثال و الوقائع تصرّيحاً أو تلميحاً حتّى تكسب الكتابة مصداقية ويكون ورودها حججاً داعمة لما يذهب إليه الكاتب، كقول ابن الأثير في كتاب يصف فيه نزول العدو على حصار بلد وكان ذلك في زمن الشّاء فسقط على العدو ثلج كثير صار به محصوراً "و قد عاجله قتال البروق قبل البوارق، وأحاط به الثلج فصار خنادق يحول بينه وبين الخنادق، والشّاء قد لقي عسكره من البرد، بعسكر هو السّماء قد قابلته بأعبر وجهها لا بأخضره والأرض كأنّها قرصة النّقيّ وعسى أن تكون أرض محشره" فالأرض كأنّها قرصة النّقيّ مستخرج من الحديث النبوي في قوله صلّى الله عليه و سلّم "إنكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النّقيّ" - يريد الخبزة البيضاء- و هو من المعاني

التي يدلّ عليها شاهد الحال" (1). فابن الأثير ضمّن كلامه حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم ليعطي كلامه مصداقيّة. وبالطريقة نفسها كتب ابن أبي حديد توقعه "وإيّاها أن يسلك في حراسة الأموال مسلك المداهنة ... فتذهب حسناته ويصبح كالتي أراقت سجلها، أو يصبح كالتي نقضت غزلها ويكثر العبث والفساد ويستحكم الطّبع ويزداد، فأدعى الأشياء إلى انحلال النّظام وضع الصّحّ موضع الانتقام، ولينصب لاستيفاء الأموال وحملها، فقد علم أنّها الثّمرة المنتظرة والغاية المرتقبة، والزّبدة التي تمخّضت عنها هذه الحركات، والنتيجة التي تقدّمت لها هذه المقدّمات فليواصل بها مواصلة يجني جناها، ويحمد عند الصّباح سراها... ويحميه من موارد الرّدى ويجعله من الذين اهتدوا وزادهم هدى. (2) فهذا الفصل يتضمّن آيتين من الكتاب العزيز وهما: (كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثا) (3). (والذين اهتدوا زادهم هدى) (4). ويشتمل على مثلين (أحدهما شعر والآخر نثر) كقول المتنبي :

ووضع الندى في موضع السيّف بالعلا مضرّ كوضع السيّف في موضع الندى .

وقول الآخر : عند الصّباح يحمد القوم السرى، فهذه الترصيعات بمثابة الحجج الدّاعمة لقول من أوردتها وتخدم نتيجة من قبيل: ما قيل صحيح أو التوقيع مقنع و مؤثر لأنّه استمدّ مصداقيته من سلطة الدليل (القرآن والحديث أو ما اتفقت عليه الأغلبية كالمثل) وهو نوع من التناص جعله طه عبد الرحمان في المرتبة الثانية من الحوارية وهي المحاورة التي تعتمد الحجاج منها استدلاليا والاعتراض آلية خطابية إطارها المناظرة، ونموذجها النظري القصد وشاهدها النصي المحاورة البعيدة . فابن أبي حديد أراد استعراض موسوعيّة ثقافته ومعرفته باعتراض ابن الأثير الذي استعرض الشيء نفسه أوّلا وذكره في مقدمة كتابه (كما أسلفنا الذكر في الفصل الأوّل)

(1) ينظر المثل السائر، ج2، ص 20.

(2) ينظر الفلك الدائر، ص 139 - 140 .

(3) سورة النحل، الآية 92 .

(4) سورة محمد، الآية 17 .

قاصدا بيان تفوقه وذلك بتضمين (ترصيع)كلامه شواهد من نصوص مختلفة(القرآن- الحديث - الشعر- المثل ...). ولهذا الغرض خصّ كلّ من المتناظرين قسما لابأس به من الكتاب لحل المنظوم والتّوقيعات المرصّعة .

2- القدرة على الاستدلال:

إذا كانت الخلفية المعرفية والثقافية مصدر استحضار الشواهد المختلفة فإنّ حسن انتقاء تلك الشواهد وكيفية توظيفها وتوجيهها قصد تحقيق الأهداف والمقاصد مصدر فاعليتها، حيث تعدّ ضمانا للمصداقية القولية وأساسا للقوّة الإقناعية عند ممارسة الخطاب، ممّا يدفع المخاطب إلى استمالة المتلقي بما يخلص إليه من استنتاجات قياسية وتمثيلات وإيجاز في الخطاب، حتى أنّه يلجأ أحيانا إلى المغالطة وسنحاول بيان هذه القدرة و مدى فاعليتها الإقناعية بتحليل نماذج من المدوّنة.

2-1 التمثيل بيان للحال:

ذكر الإمام القزويني في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة" التمثيل ما وجهه وصف منتزع من متعدّد أمرين أو أمور" (1). فيكون بهذا "هيئة حاصلة من عدّة أمور سواء كان الطرفان مفردين أو مركّبين، أو كان أحدهما مفردا و الثاني مركّبا وهو بذلك محتاج إلى ضرب من التأمّل والتأويل، فكلّ تمثيل تشبيه وليس كلّ تشبيه تمثيل" (2). فالتمثيل عقد الصلة بين صورتين، ليتمكّن المرسل من الاحتجاج و بيان حججه وقد عقد الجرجاني فصلا في مواقع التمثيل وتأثيره فقال "التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصليّة إلى صورته كساها أبهّة، و كسبها منقبة، ورفع من أقدارها، و شبّ من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستشار لها من أقاصي

(1) أبو العلاء جلال الدين الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، راجعه عمار بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت لبنان، ط3، ص 142 .

(2) د . بن عيسى بالطاهر، البلاغة العربية، مقدمات و تطبيقات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008 ص 227 .

الأفئدة و كلف، وفسر الطباع على أنها تعطيها محبة وشغفا، فإن كان مدحا كان أبهى و أفخم ... وإن كان ذمًا كان مسه أوجع، وإن كان حجاجا، كان برهانه أنور وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر"⁽¹⁾. ومما ورد في هذا الباب قول ابن الأثير "وقد كتبت كتابا لمن اقترحه عليّ أذكر فيه فتح مصر معارضا لكتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيسانى في المعنى فقلت فيه "و من جملتها ما فعله الخادم في الدولة المصريّة، وقد قام بها منبر وسرير وقالت: منّا أمير و منكم أمير، فردّ الدعوة العبّاسية إلى معادها وأذكر المنابر ما نسيت به من زهو أعوادها". قال فانظر إليّ كيف أتيت فيه بكلام الحباب بن المنذر الأنصاري * حيث قال يوم السقيفة للمهاجرين: منّا أمير و منكم أمير، والقصة مشهورة، فقال أبو بكر بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء.⁽²⁾ فابن الأثير أراد بيان مناقب صلاح الدّين يوسف بن أيوب وما أبلاه في خدمة الدولة من فتح الديار المصرية ومحو الدولة العلوية وإقامة الدعوة العبّاسية فمثل تنافس الدولتين العلويّة و العبّاسية على الإمارة بحادثة يوم السقيفة كي يعطي حججه مصداقية أكبر ويتمكّن من الوصول إلى مراميه ويؤثر في المتلقي وهذا ما يعمد إليه المرسل لبيان الحال والإقناع بما يذهب إليه ويمكن تمثيله كما يأتي :

فتح مصر _____ فتح مكة .

الفاطيون فقط أمراء _____ المهاجرون الأمراء و الأنصار وزراء.

قول صلاح الدّين يوسف بن أيوب _____ قول أبي بكر الصّدّيق .

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان ط1، ص 85 - 86 .

* في المثل السائر ج1، ص 57 : فانظر كيف ما تلت بين الفتح المصري و فتح مكة، و ذكرت أيضا حديث الحباب بن المنذر الأنصاري حيث قال بعد وفاة النبي صلى الله عليه و سلم : منّا أمير و منكم أمير (المهاجرين و الأنصار) و ذلك لمّا حضر أبو بكر و عمر و أبو عبيدة الجراح رضي الله عنهم في سقيفة بني عبيدة .

(2) ينظر الفلك الدائر، ص 54 .

حيث عقد المناظر الصلة بين صورتين ليتمكّن من الاحتجاج و بيان حججه .
 كما اعترضابن الأثير على ما ذكره ابن سنان الخفاجي من أنّ أحد ما يشترط في
 حسن اللفظة أن تكون مخارج حروفها متباعدة إذ قال: هذا باطل لأنّه لو كان العلم
 بحسن اللفظة وقبحها مشروطا بتباعد مخارجها أو تقاربها، لوجب ألاّ يحكم على الفور
 بقبح لفظة أو حسنها حتى تعتبر مخارج الحروف ونحن نجد الأمر عكس ذلك (حكم
 الاستحسان أو الاستقباح بمجرد سماع الكلمة)⁽¹⁾.

فردّ عليه ابن أبي حديد أنّه ليس بمنكر أن يعلم المعلول قبل العلة والمشروط قبل
 الشرط⁽²⁾ بتمثيل اللفظ بالجارية فقال: "الأ ترى أنّك إذا رأيت الجارية الحسناء فإنّك
 تستحسنها على الفور ولا يتوقّف استحسانك إيّاها على أن تستحضر في ذهنك علة
 الحسن من رقة شفيتها وأنفها وامتداد سالفيتها ومخالطة الحمرة للبياض في بشرة
 وجهها، وغير ذلك من أسباب الحسن، ولا يطعن حكمك بالحسن على الفور في تعليل
 الحسن بهذه الأمور؟ فعقد الصلّة بين اللفظة و الجارية ليتمكّن من الحجاج و يبيّن
 حججه و يقويها قصد التأثير في المتلقي، فالمتناظران وظفا التمثيل قصد التأثير ممّا
 يبيّن فاعليّته (التمثيل) إذ يعد آلية حجاجية إقناعية مؤثرة كما أنّه دليل على قدرة
 المحاجج الاستدلالية، وهو عند ابن أبي حديد بالإضافة إلى ما ذكر سمة من سمات
 الردود النقديّة (الاعتراض) وأحد مؤشّراته الغائيّة (القصد) الممثلة في النقص.

2-2 التفريع آلية الاستدلال :

"و يسمّى كذلك تقسيم الكلّ إلى أجزائه، وهو ذكر المرسل حجّته كلياً في أوّل الأمر
 ثمّ يعود إلى تعداد أجزائها ليحافظ على قوتها الحجاجيّة، فكلّ جزء بمثابة دليل على
 دعواه"⁽³⁾. وهذه الأجزاء تعدّ توسّعا في عرض القضية و دليل على صدق الدعوى
 فإن اجتمعت جميعها أكسبت الأطروحة مصداقيّة، كقول ابن الأثير: والفصاحة
 مختصّة بالألفاظ دون المعاني، لوجوه منها أنّ الفصيح هو المألوف الاستعمال، وإنّما

(1) ينظر الفلك الدائر، ص 174 .

(2) ينظر م . ن، ص 175 .

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 494 .

كان مألوف الاستعمال لحسنه، وحسنه يدرك بالسمع لأنه أمر عائد إلى تركيب حروفه وخفتها و تباعد مخرجها، والذي يدرك بالسمع يكون صوتاً يأتلف من مخارج الحروف، وكل ما ليس بمسموع لا يكون فصيحاً*¹ (2) فهذه القضية التي طرحها ابن الأثير جزأها إلى عدة أجزاء، كل جزء منها يدعم القضية ويمكن اعتبار القضية المطروحة بمثابة النتيجة و أجزاءها بمثابة حجج، إذ تؤدي مجتمعة إلى النتيجة المطروحة و نمثلها كما يأتي :

ن النتيجة: الفصاحة مختصة بالألفاظ دون المعاني .

ح6 كل ما ليس بمسموع لا يكون فصيحاً .

ح5 الذي يدرك بالسمع يكون صوتاً يأتلف من مخارج الحروف.

ح4 لأنه أمر عائد إلى تركيب حروفه و خفتها و تباعد مخرجها.

ح3 حسنه يدرك بالسمع .

ح2 إنما كان مألوف الاستعمال لحسنه .

ح1 الفصيح هو المألوف الاستعمال .

فابن الأثير أراد إقناع المتلقي باقتصار الفصاحة على الألفاظ دون المعنى فجزأ حكمه (النتيجة) أجزاء وظفها حججاً ترتيبية تخدم كل منها الأخرى وباجتماعها معا تصدق النتيجة أو الأطروحة.

فردّ عليه ابن أبي حديد مستخدماً الآلية ذاتها (التفريع) فقال: "أقول هذا الكلام يحتمل أمرين: أحدهما أن يجعل حدّ الفصاحة هي الألفاظ المألوفة الاستعمال، وإنّما كانت مألوفة الاستعمال لخفتها وسلاستها والآخر ألاّ يجعل ذلك حدّاً للفصاحة فإن أراد الأوّل لم نضايق على ذلك، لأنّ لكلّ واحد أن يتكلّم بما يشاء ويقول عنيت كذا و كذا.

*1 كل ما ليس بمسموع لا يكون فصيحاً: غير موجودة في المثل السائر ينظر ج1، ص116.

(2) الفلك الدائر، ص 89 .

و إن أراد الثاني وهو الظاهر من كلامه قيل له إن كانت كثرة الاستعمال وسلاسة اللفظ توجب أن يسمّى اللفظ فصيحاً فليس ذلك بمانع من أن توجد دلالة أخرى تسمّى المعنى فصيحاً، فليس ذلك بمانع، لأنّ دلالتك بما تدّعيه لا توجب انتفاء الأدلّة على إطلاق هذه اللفظة على المعنى، فغاية ما في الباب أنّك استدلت على أنّ اللفظ يطلق عليه الوصف بالفصاحة، فلم قلت إنّ الوصف بالفصاحة لا يطلق على المعاني؟.

لقد أراد ابن أبي حديد دحض ما ذهب إليه ابن الأثير من اختصاص الفصاحة بالألفاظ دون المعاني (النتيجة) ففرّع حكمه (النتيجة) إلى فرعين:
أولهما جعل حدّ الفصاحة هي الألفاظ المألوفة الاستعمال، ولا اعتراض على ذلك.
ثانيهما أن لا يجعل ذلك حدّاً للفصاحة، بل المراد تعليل اختصاص اللفظ بوصف الفصاحة و كون المعاني لا يجوز أن توصف بالفصاحة .

ثمّ جزءاً الفرع الثاني أجزاء تدعّم بعضها وتخدم مجتمعة الحكم (النتيجة) المتوصل إليها وهي: لقد استدلت على أنّ اللفظ يطلق عليه الوصف بالفصاحة، فلم قلت إنّ الفصاحة لا تطلق على المعاني؟ ومفادها: حكمك الثاني غير مبرّر وهنا تظهر فائدة التفرّيع إذ ينظّم العمليّة الحجاجيّة ويكسب النقد المنهجيّة والدقّة وهما دعامتي الإستدلال وبيان لقدرة المستدلّ.

2-3 مصداقية القياس الخطابي:

"القياس الخطابي يقوم على الاحتمال من ناحية وعلى الإضمار من ناحية أخرى، فهو آية من آيات الذهن البشري، تقوم بالربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما للوصول إلى استنتاج ما بألفاظ فيها شيء من الالتباس والاشتراك بناء على أنّ القياس يقوم على التجربة، التي ينطلق منها المتكلم لتشكيل صورة استدلالية"⁽¹⁾ "وقد يتّسع ليشمل جميع صور الاستقراء والاستنتاج القائمة على الاحتمال لا القطع وقد يضيق ليدلّ على القياس الذي تضرر نتيجته أ وإحدى مقدّمته {...}

(1) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص 91.

فالقياس المضمرة هو قياس يقوم على الاحتمالات⁽¹⁾. حيث يخفي المنكلم عادة المقدمتين و يظهر النتيجة أو يظهر المقدمتين و يخفي النتيجة، وذلك في الأقوال العادية والمجازية. مثال هذا النوع الثاني ماأورده ابن الأثير في كتاب إلى ديوان الخلافة فقال: "ومهما شدّ به عضد الخادم من الإنعام فإنه قوّة لليد التي خولته، ولا يقوى تصعدّ السّحب إلاّ بكثرة غيثها الذي أنزلته، وغير خا ف أن عبید الدولة لها كالعمد من طرفها، ومركز الدائرة من أطرافها، ولا يؤيّد السّيف إلاّ بقائمه ولا ينهض الجناح إلاّ بقوادمه"⁽²⁾.

فابن الأثير أراد بيان فضل إنعام الخليفة على الخدم و أثر ذلك في رفعة مكانته وشدّة قوّته فأضمر هذه النتيجة وأورد القياس على شكل تشبيهين يمثّلان مقدمتين: المقدمة الأولى: لا يقوى تصعدّ السّحب إلاّ بكثرة غيثها الذي أنزلته (ترتفع مكانة الخليفة بكثرة إنعامه).

المقدمة الثانية: لا يؤيّد السّيف إلاّ بقائمه ولا ينهض الجناح إلاّ بقوادمه (حزم الخليفة و شهرته يجسدها رعاياه وتابعوه).

النتيجة المضمرة: مقام الخليفة مرهون بإنعامه.

وفي نفس الموضوع (تقريباً) وبنفس الآلية (القياس الخطابي) - وهو نوع من ردّ الفعل الذي يدلّ على حدوث التأثير- كتب ابن أبي حديد لأحد الزعماء ناصحاً إياه بمحاربة المفسدين ومكافأة المصلحين قائلاً " فكن في ذلك كالليث السّغب*³ ينهض إلى فريسته، والصقر*⁴ القطم ينقضّ على طريدته"⁽⁵⁾.

(1) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري و تطبيقي لدراسة الخطابة العربية، إفريقيا الشرق، المغرب ط2، 2002، ص 71 .

(2) المثل السائر، ج1، ص 282.

3 * السّغب : الجائع .

4 * القطم : يشتهي اللحم .

(5) الفلك الدائر على المثل السائر، ص 149 .

ورد القياس هنا على شكل تشبيهين يمثلان مقدمتين، المقدمة الأولى: اللَّيْثُ السَّعْبُ (الجائع) ينهض إلى فريسته (الجدّ و الحزم في الطلب). المقدمة الثانية: الصَّقْرُ القَطْمُ ينقضّ على طريدته (اليقظة و الفطنة و الشّجاعة).

النتيجة: كن عادلا (بحزمك و فطنتك و شجاعتك).

فالمتمكّم أراد أن ينصح المتلقي بالعدل، فأضمر النتيجة و ذكر المقدمتين على شكل قولين مجازيين يؤدّيان إلى النتيجة المراد الوصول إليها. ذلك أن الأقوال المجازية أقوى حجاجيا من الأقوال العادية، فابن الأثير وظّف القياس الخطابي بربطه بين إنعام الخليفة على الخدم و بين ارتفاع السّحب و أداء السيّف و طيران الجناح لاشتراكها في جملة من الخصائص كي يصل إلى استنتاج مفاده مقام الخليفة مرهون بإنعامه و الشّيء نفسه نجده عند ابن أبي حديد إذ ربط بين صورة الزّعيم الجادّ الحازم (المضمرة) و صورة اللَّيْثِ السَّعْبِ المنتهض إلى فريسته من جهة و بين صورة الزّعيم اليقظ الشجاع (المضمرة) و صورة الصقّر القطم ينقضّ على طريدته من جهة أخرى، ليصل إلى النتيجة: كن عادلا (بحزمك و جدك و فطنتك و شجاعتك).

فالمتناظران اعتمدا القياس الخطابي لإكساب أقوالهما مصداقيّة حيث ربطا صورا واقعيّة مسلّم بها بصور منصوحيهما (الخليفة و الزّعيم) لتتطابق أحكامهم، ويعدّ انتهاج ابن أبي حديد نفس طريقة ابن الأثير دليلا على قدرته الاستدلالية لأنّ صاحب الرّد المناقض خصوصا ملزم بتتبّع طريقة صاحب القول الأوّل مثلما هو الحال في شعر النّقائض.

2-4 المغالطة:

حجاج غير صحيح يذكر شكله بشكل حجاج صحيح أي أنه حجاج مغالطي، والمغالطة في معنى أرسطو قياس ينطلق من مقدّمات صادقة ولكنه يجري عليها ضربا من الاستنتاج غير صحيح {...} وميّر أرسطو بناء على أسس قياسيةّ أغاليط القياس المرتبطة باللّغة (أغاليط الالتباس خاصّة) من أغاليط القياس خارج اللّغة (المصادرة

على المطلوب، سبب غلط، إثبات الناتج) (1). و عرف طه عبد الرحمان المغالطات بقوله "أدلة فاسدة" (2). ومثال المغالطات في هذا الكتاب:

1 - أن ابن الأثير ذهب إلى " أن صناعة تأليف الكلام من المنثور و المنظوم تفتقر إلى آلات كثيرة وثقافة متنوّعة وينبغي للكاتب أن يتعلّق بكلّ علم ويخوض في كلّ فنّ وملاك هذا كلّهُ الطّبع وقد أشرك ابن الأثير الشعراء مع الكتاب في ألوان الثّقافة واختصّ الشعراء بنوع منها هو علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر " (3).

فردّ: ابن أبي حديد معتبرا هذا الكلام من أبهات الكتاب وتزويقاتهم، وأعطى أمثلة كأدلة ب: سبحان وائل وقسّ بن ساعدة، وهما خطيبان وليسا كتّابا أو شعراء (4). كذلك أورد ابن أبي حديد على لسان ابن الأثير استشهاده بقوله تعالى (و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) في باب المشترك اللفظي - باعتبار الساعة الأولى تعني القيامة والثانية تعني المقدار المخصوص من الزمن، وردّ عليه و ناقضه (5). إلاّ أنّ هذا الشاهد القرآني لم يرد عند ابن الأثير في باب المشترك اللفظي وإنما استدلّ بالآية في التجنيس الحقيقي (6). وهناك نوع آخر من المغالطة يتمثّل في اجتزاء القول (أخذ الجزء والردّ عليه بما يعطيه وجاهة و قوّة حجاجية) حيث يكون الجزء في صالح المناظر المعارض، مثال ذلك قول ابن الأثير: موضوع علم النحو هو اللفظ من جهة الدلالة على المعنى عن طريق الوضع اللّغوي، وموضوع علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصّة (7). فردّ عليه ابن أبي حديد وعلّق دون أن يكمل قوله: " والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو

(1) باتريك شارود و دومنيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري و حمادي صمّود، دار سيناترا تونس، 2008، ص 406.

(2) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان، ص 230 .

(3) ينظر المثل السائر ، ص 38 .

(4) ينظر الفلك الدائر، ص 40 - 41 .

(5) ينظر المرجع نفسه، ص 56 .

(6) ينظر المثل السائر، ج1، ص 263 .

(7) ينظر الفلك الدائر على المثل السائر، ص 38 .

والإعراب، ألا ترى أنّ النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة و البلاغة⁽¹⁾. وفي الصنّاعة المعنوية، اجتزأ قول ابن الأثير وعلّق عليه بأنه خطأ وهو نتيجة عجب الإنسان بنفسه إذ ليس مراد القوم بالشعر ما توهمه⁽²⁾. إنّ غاية ابن أبي حديد من تأليف كتاب الفلك الدائر على المثل السائر دحض ما جاء به ابن الأثير في كتاب المثل السائر ونقضه ، فلجأ إلى المغالطة كنوع من التلاعب بالحجّة وذلك بإيراد بعض كلام ابن الأثير في غير محلّه ليظهر غلظه أو أخذ جزء منه فقط ليوهم بضعف حججه أو الاستدلال بالشواهد الخاطئة في ردّه(كاستدلاله على ضرورة ثقافة الكاتب والشاعر بسحبان وائل وقس بن ساعدة وهما خطيبان). ممّا يعني افتقاد ابن أبي حديد للدليل والحجّة إلا أنّ هناك عامل آخر قد يكون مبرراً لمغالطات ابن أبي حديد فتفسّر على أنّها أخطاء غير متعمّدة وهو عامل الزّمن فقراءته كتاب المثل السائر (الموسوعي) وتعليقه عليه وتتبعه ونقضه لم تتعدّ نصف شهر (ذي الحجة) من سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة⁽³⁾.

3- أهمية المقدرة الفنيّة في الكتابة:

وتكون بإجتماع القدرتين السابقتين (المعرفية والاستدلالية) اللتان تمدّان المناظر بما يحتاجه لإنتاج خطابه، فيصيغه في قالب فنيّ يكون له الأثر البالغ في إذعان المتلقي و تحقيق المقاصد وذلك بإجتماع المجاز والجمال ويمكن بيان ذلك من خلال الآليات الآتية.

3-1 الاستعارة و فنّ الكتابة:

"عرفّها الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة بقوله "اعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل اللغوي معروفاً تدلّ الشواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون

(1) ينظر المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ص 37 .

(2) م . ن ، ص 193 .

(3) ينظر الفلك الدائر، ص 34.

كالمعارية"⁽¹⁾. وهذا النقل من الوضع الأصلي إلى المجازي يجعلها صورة فتكون بذلك حجة إذ تعتمد الإضمار من ناحية و الإيجاز من ناحية أخرى، وقد قسم الجرجاني الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة، " فالاستعارة المفيدة تلعب دورا أساسيا في البناء الشعري، ولولاها لم يحصل لك ما تريد تصويره، أما الاستعارة غير المفيدة فهي لا تعدو أن تكون تلاعبا بالألفاظ"⁽²⁾. ومن المحدثين أمثال كونراد و ريتشارد و جورج لايكوف و مارك جونسون وآخرين من قسمها إلى : استعارة لغوية وأخرى جمالية⁽³⁾.

فالاستعارة اللغوية استعارة حجاجية لأنها "تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، والاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم الخطابية والتواصلية فنحن نجدها في اللغة اليومية وفي الكتابات الأدبية والسياسية والصحفية والعلمية"⁽⁴⁾. أما الاستعارة غير الحجاجية أو البديعية، فإنها تكون مقصودة لذاتها، ولا ترتبط بالمتكلمين وبمقاصدهم وأهدافهم الحجاجية، وإنما نجد هذا النوع من الاستعارة عند بعض الأدباء والفنانين الذين يهدفون من وراءه إلى إظهار تمكّنهم اللغوي، فالسياق هنا إذن هو سياق الزخرف اللفظي والتفنن الأسلوبي وليس سياق التواصل والتخاطب. نتبين من هذا أن الاستعارة الحجاجية هدفها الإقناع والتأثير في المتلقي لكن يمكن اعتبار الاستعارة البديعية إقناعية أيضا إذا كان لجمالها تأثير في المتلقي وهنا يمتزج الإقناع بالجمال لأن الاستعارة إلى حد كبير هي صورة مجازية، وكما قال طه عبد الرحمان "لا حجاج بغير مجاز"⁽⁵⁾. كما أن "القول الاستعاري يقدّمه المتكلم على أنه

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، مرجع سابق، ص 28 .

(2) م . ن، ص 173 .

(3) أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج، العمدة في الطبع، ط1، 2006، ص 108 .

(4) م . ن، ص 108 .

(5) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان، ص 123 .

دليل أقوى لصالح النتيجة المتوخاة وهذا ما يجعله فوق الإبطال، بمعنى أننا لا نتصور إمكان ورود دليل مضاد بعد القول الاستعاري يخدم النتيجة المعاكسة⁽¹⁾. و نمثّل الاستعارة الحجاجية بقول ابن الأثير في حلّ المنظوم (نثر بيتين) للمتنبّي في وصف قلعة الحدث:

بناها فأعلى و القنا تفرع القنا
و موج المنايا حولها متلاطم .
و كان بها مثل الجنون فأصبحت
و من جث القتلى عليها تائم .

فقال : بناها والأسنة في بنائها متخاصمة، وأمواج المنايا فوق أيدي البانين متلاطمة و ما أحطت الحرب عنها حتّى زلزلت أقطارها بركض الجياد، وأصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تائم من الرؤوس والأجساد، ولاشكّ أنّ الحرب تعرد عمّن عزّ جانبه وتقول "ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه"⁽²⁾. فابن الأثير نثر بيتي المتنبّي قصد بيان أهميّة ما قام به سيف الدولة من استعادة القلعة وبنائها وهزم أعدائه الذين خرّبوها موظفاً عدّة استعارات كحجج تدعّم قوله.

ح1: بناها و الأسنة في بنائها متخاصمة .

ح2: وأمواج المنايا فوق أيدي البانين متلاطمة .

ح3: زلزلت أقطارها بركض الجياد.

ح4: علقت عليها تائم من الرؤوس و الأجساد .

ح5: الحرب تعرد عمّن عزّ جانبه.

ح6: و تقول ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه.

النتيجة: سيف الدولة استعاد القلعة من أيدي الأعداء وأعاد بنائها رغم الردى، فهو رجل لا مثيل له (متفرد).

فابن الأثير اعتمد الاستعارة وسيلة من وسائل الإقناع الحجاجية في حلّ المنظوم ممّا جعل ابن أبي حديد يلجأ هو الآخر إلى الاستعارة فنثر نفس البيتين قائلاً:

(1) ينظر أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج ص 106 .

(2) المثل السائر، ج1، ص 108.

"حماها فأجلى، وبناها فأعلى، ونيران المران تضطرم، وأمواج الأرماع تلتطم، وشبا
الظبا يصطدم ولظى الوغى تحتدم، فقرت بعد انزعاجها، وسلمت بعد ارتجالها، وشفيت
من ألمها وبرئت من لممها، وأصبحت منقلدة بغمائم من أشلاء الفوارس، تدفع عنها
العائن ونفس النافس، وليست كقلائد عراف اليمامة وعراف نجد، ولكنها قلادة طرفاها
الشرف وواسطتها المجد".... و أشرت فيه إلى قوله صلى الله عليه وسلم للحسن
و الحسين عليهما السلام:

أعيذكما من عين العائن ونفس النافس وإلى قول عروة بن حزام :

ضمنت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياي(1).

إن ردّ ابن أبي حديد دلالة على حصول التأثير، لأن ردّ الفعل نتيجة لأثر الفعل في
متلقيه، كما أن انطلاقه من نفس أسس (منطلقات) ابن الأثير واعتماده نفس الآلية
الإقناعية (الاستعارة) دلالة على قدرته على التأليف والكتابة ولإثبات هذه المقدره
وظف الاستعارة (حجاجيا) في توقيعاته، منها قوله في أحد النظائر "لما كان فلان
من الرجال الأفراد وكان في أيام خدماته الرجل الشهم الذي ينفذ نفوذ السهم، ويدرك
بحسه الثاقب خفي الوهم، إذا سقى أرضا صابه ، وإن رمى به رمية أصابها (1).
يحتوي هذا القول على ثلاث استعارات حجاجية جاءت على شكل حجج لتدعيم الطرح
أو النتيجة وهي:

ح1 : يدرك بحسه الثاقب خفي الوهم .

ح2 : إذا سقى به أرضا صابها .

ح3 : إن رمى به رمية أصابها .

النتيجة: فلان من الرجال الأفراد(متفرد: متميز).

فالحجة الأولى حجة قوية تدعم النتيجة وقد جاءت على شكل استعارة وهي الرجل
المتميز صاحب الحس المرهف والفتنة التي تمكنه معرفة خفايا وخلفيات الأمور
والثانية والثالثة تدلان على أثر الحس المرهف والفتنة في حل ما استعصي من

(1) ينظر أبو بكر العزاوي ، اللغة و الحجاج ، ص 106 .

المسائل وإثرائها، فالمتكلم لجأ إلى استعمال الاستعارة لأنها أقوى حججياً من الأقوال العادية، إذ جسّد المعنوي في المحسوس ويمكن تمثيلها كما يأتي:

<p>ن الرجل المتفرد</p> <p>— إذا سقى به أرضاً صابها .</p> <p>— لفطنة و الحسّ المرهف ينيران</p> <p>العقل كما يجعل الماء الأرض</p> <p>مخضرة (خصبة).</p>	<p>ن الرجل المتميز (المتفرد)</p> <p>— يدرك بحسّه الثاقب خفيّ الوهم .</p> <p>— يجب على الإنسان أن يكون</p> <p>فطنا يقظاً مرهف الإحساس .</p>
--	--

فالملاحظ هنا أنّ الأقوال الاستعارية أقوى حججياً من الأقوال العادية لأنها فوق الإبطال كما ذكرنا سابقاً، لذلك توسّل بها المتكلم لبلوغ هدفه المتمثل في بيان تميّز هذا الرجل وتفردّه من بين أقرانه وأترابه من النظار.

ويمكن تمثيلها بواسطة السلم الحجج كـ ما يأتي:

ن فلان من الرجال الأفراد .

ح3 _ إن رمى به رمية أصابها .

ح2 _ إذا سقى به أرضاً صابها .

ح1 _ يدرك بحسّه الثاقب خفيّ الوهم .

و ممّا ذكرنا نتبيّن أنّ الاستعارة آلية اقناعية ووسيلة حججية من وسائل الردود النقدية تكمن حجيتها في مجازيتها لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم وفيما يعترئها من لبس نتيجة اعتمادها الإضمار من ناحية والإيجاز من ناحية أخرى، وهذا الالتباس هو المحرّك لآليات الفهم والتأويل لدى المخاطب والباعث على تكوثر الخطاب (توالد

النصوص)، كما أن توظيفها في نفس الموضوع من طرف ابن أبي حديد (كردّ دلالة على امتلاكه ثقافة واسعة وقدرة كبيرة على الكتابة والتأليف لأنّ النقض يقتضي وحدة الموضوع محلّ المناظرة .

2-3 الإيجاز والمقدرة الفنية:

نظنّ القدامى إلى الإيجاز وأهميته في العملية الحجاجية لأنه يشدّ الانتباه و يبعد الملل فهو وسيلة للتأثير في المتلقي ذلك أنّه كلّما كان الكلام وجيزا كان نفاذه إلى الأسماع أسرع، ووقعه في القلوب أشدّ وأحسن وقد ذكره ابن رشيق في كتابه "العمدة" قائلا: "وقال بعض العلماء، يحتاج الشاعر إلى القطع حاجته إلى الطوال، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثّل و الملح أحوج إليها منه إلى الطوال"⁽¹⁾. فابن رشيق يرى أن الخطيب بحاجة إلى الإيجاز للتأثير في المتلقي وتوجيهه نحو المقصود و دفع السأم والنسيان عنه، كما أشار إليه "روبول" بقوله "الإيجاز هام من زاوية تعنى بالحجاج لأنه يشكّل سلاحا نواجه به العدوّن القاتلين، النسيان و عدم الانتباه. فاللتويل في الوصف والتصوّر والإسهاب في الشرح والتعليل ينتهيان بالمتلقي إلى الملل فتضعف قدرته على الانتباه ولا يحتفظ من القول إلاّ بأقله، وحتىّ هذا القليل معرض إلى النسيان لبعده عن الإيجاز"⁽²⁾. وقد وظّف ابن الأثير الإيجاز في مواضع كثيرة من كتابه منها ما ذكره في هذا التوقيع المبيّن حبّ المال، فقال: "بين المال علاقة وكيدة وبين القلوب وهي له بمنزلة المحبوب، وليس ذلك إلاّ لأنّ الله قبض قبضة من جميع الأرض فخلق آدم من تلك القبضة، ويوشك حينئذ أن صورة قلبه تكوّنت من معدن الذهب والفضّة، ولولا أن يكون منهما عنصر إيدائه، لما جعلهما الأطبّاء دواءه من دائه، فلا تستغرب إذن أن يكون على حبّهما مطبوعا، إذ كان منهما مصنوعا"⁽³⁾. أراد ابن الأثير بيان سبب حبّ المال فاعتمد الجمل القصيرة المؤثرة لأنّ كل جملة (حجّة) اختصار لجمل وأقوال كثيرة، ولقد أعجب ابن أبي حديد بإنشاء ابن

(1) ابن رشيق، العمدة، ج1، نقلا عن سامية الدر يدي، الحجاج في الشعر، ص 123 .

(2) أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي، نقلا عن م. ن، ص 123.

(3) المثل لسائر في أدب الكاتب و الشاعر، ج1، ص 159.

الأثير و صناعته - حسبما ذكره في مقدّمة الفلك الدائر - فكتب العديد من التوقيعات بنفس الطريقة منها قوله "عوائد الديوان العزيز إهداء عقائل النعم إلى الأكفاء....ولمّا كان فلان الرّجل الذي تضرب به الأمثال، ولا تعدله الأمثال، والمهذب الذي لا يسأل له أيّ الرّجال، والفائز بشرف الاستعلاء على الأوّلين، والحائز لقصب السبق يوم الرّهان...رأى الديوان العزيز الإنعام عليه.... علما باستقلاله واضطّلاعه، وثقة بسعة صدره وامتداد باعه...وعلمه وتيقّظه، وحزمه وتحفّظه (1). فالإيجاز تجسّد في الحجج التي قدّمها المتكلّم لتدعيم (الطرح) النتيجة : كفاءة الرّجل، ونمّثلها بما يأتي.

ن النتيجة : كفاءة الرّجل .

- _ ح9 _ حزمه وتحفّظه .
- _ ح8 _ علمه وتيقّظه .
- _ ح7 _ سعة صدره و امتداد باعه.
- _ ح6 _ استقلاله و اضطّلاعه .
- _ ح5 _ الحائز لقصب السبق يوم الرّهان .
- _ ح4 _ الفائز بشرف الاستعلاء على الأوّلين .
- _ ح3 _ المهذب الذي لا يسأل له أيّ الرّجال .
- _ ح2 _ لا تعدله الأمثال .
- _ ح1 _ فلان الرّجل الذي تضرب به الأمثال.

لقد ماثل ابن أبي حديد ابن الأثير في توظيف الإيجاز لإقناع المتلقي من جهة والردّ على مناظره ببيان كفاءته الفنيّة و قدرته على الكتابة و الإنشاء من جهة أخرى وهي إحدى السمّات الحجاجيّة في الردود النقدية .

(1) ينظر الفلك الدائر، ص 160 .

فالإيجاز دليل القدرة الإبداعية والكفاءة الفنيّة وموجّه الخطاب لصالح المتكلم (المخاطب) بما يفسحه من مجال التّأويل لدى المتلقّي بغية إقناعه.

3-3 وظائف المحسّنات البديعية:

يمكن للمحسّنات البديعية أداء وظيفة حجاجيّة حيث يقول صابر الحباشة "إن محسّنًا لهو حجاجي إذا كان استعماله وهو يؤدّي دوره في تغيير زاوية النّظر، يبدو معتادا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة، وعلى العكس من ذلك فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب، فإنّ المحسّن سيتم إدراكه باعتباره زخرفة، أي باعتباره محسّن أسلوب، ويعود ذلك إلى تقصيره عن أداء دور الإقناع"⁽¹⁾. إذن المحسّنات قسمان: محسّنات أسلوب وهي محسّنات زخرفية، ومحسّنات حجاجية تتعلّق باستمالة المتلقّي والإقناع (التأثير) هو الحدّ الفاصل بينهما فمتى تحقّق سمّي المحسّن المتوسّل به حجاجيا والعكس صحيح.

الطباق والمقابلة والسّجع:

قال ابن الأثير في وصف الإخوان "ليس الصّديق من عدّ سقطات قرينه، وجازاه بغثه وسمينه بل الصّديق من ماشى أخاه على عرجه، واستقام له على عوجه، فذلك الذي إن رأى سيّئة وطئها بالقدم وإن رأى حسنة رفعها على علم"⁽¹⁾.² وظّف ابن الأثير المحسّنات البديعيّة (الطباق والمقابلة والسّجع) حجاجيا ليدعم النّتيجة المتمثّلة في بيان الصّديق الحقيقي أو الصّدّاقة الحقيقيّة.

فمن الطّباق : غثّه ≠ سمينه - استقام ≠ عوجه .

أمّا المقابلة فكانت رباعيّة : إن رأى - سيّئة وطئها بالقدم .

حسنة رفعها على علم.

(1) صابر الحباشة، التداولية و الحجاج، مداخل و نصوص، دمشق، ط1، 2008، ص 51 .
(2) المثل السائر، ج1، ص125.

كان السّجّع بانتهاء الفواصل بنفس الحرف الهاء ثمّ الميم، أمّا الطّباق والمقابلة فبالجمع بين الأضداد،- والضدّ بالضدّ يعرف- ولهما بالإضافة إلى السّجّع وقع يؤثّر في المتلقي ويزيد من درجة إذعانه.

وتوظيفهم مجتمعين دلالة على قدرة ابن الأثير على الكتابة وبيان لمكانته العلميّة وهذا ما دفع ابن أبي حديد إلى الردّ عليه (ابن الأثير) بتوظيف نفس الآلية المحسّنات البديعيّة قصد إبراز مقدرته الفنيّة على الكتابة والتأليف من خلال معارضته بما أورده من صفات الملك، إذ يرى أنّه يجب أن يكون الملك ذا لونين: أزهر وأقتم، وذا طعمين: أحلى من العسل، وأمرّ من العلقم، وذا وجهين: طلق وشتيم⁽¹⁾. وذا ويومين: يوم بؤس ونعيم.

فقد أورد المتكلم الطّباق لغاية حجاجية و كذلك المقابلة إذ بنيت الفقرة على شكل ثنائيات، من أجل تدعيم النتيجة فكلّ ثنائية حجّة .

ح1 - أزهر ≠ أقتم .

ح2 - أحلى ≠ أمرّ .

ح3- العسل ≠ العلقم .

ح4- طلق ≠ شتيم .

ح5- بؤس ≠ نعيم .

النتيجة: صفات الملك .

وقد اجتمعت الحجّة الثانية والثالثة في المقابلة الثنائيّة .

أحلى من العسل ≠ أمرّ من العلقم .

فلمحسّنات البديعية وظائف حجاجية تأثيرية إقناعية كما أنّها دلالات على المكانة العلمية للمتناظرين و قدرتهما على الكتابة .

قمنا في هذا المبحث بتحليل بعض الآليات الحجاجية البلاغية و الاستدلالية قصد بيان حقيقة ذات أهميّة كبيرة، وهي أنّ حقيقة البلاغة ليست محض زخارف وجمال لفظي

(1) * شتيم : عابس، كريبه الوجه .

أومعنوي، بل لها وظيفة حجاجية إقناعية تجعل المتلقي مدعنا للمخاطب وتؤثر فيه أيما تأثير لتوفرها على خاصية اللبس، حيث تمتاز الحقيقة بالمجاز والحجة بالجمال.

لقد لجأ كل من ابن الأثير وابن أبي حديد إلى توظيف هذه الآليات في كتابيهما حجاجيا فاستدلاً بالمجاز لإثبات الحقيقة (التمثيل و الاستعارة) ومزجا الحجة بالجمال (الطباق - المقابلة - السجع)، وقد اقتصرنا على آليات دون غيرها وتوسعنا في بعضها واختصرنا بعضها الآخر، مراعاة لطبيعة ومدى استعمال كل آلية، فكان الشاهد أكثرها تداولاً لما تقتضيه طبيعة الردود النقدية، حيث قام ابن الأثير باستفزاز ابن أبي حديد باعتبار سابقه و معاصريه لم يأتوا بما يعتمد عليه مما دفعه إلى الرد عليه ومناقضته، موظفاً الشواهد المختلفة متوسلاً بمختلف الآليات البلاغية والاستدلالية .

المبحث الثاني: آليات الحجاج اللغوية

تعتمد الردود النقدية الحجاج منها استدلالياً مما دفع ابن الأثير وابن أبي حديد إلى توظيف مختلف الآليات البلاغية كما ذكرنا سالفاً، ولتحقيق انسجام النصوص (بترتيب الحجج والربط بينها) وتوجيه الأقوال والمقاصد أضافا مجموعة من الروابط الحجاجية النحوية والتداولية وبعض الأفعال اللغوية التي سنقوم بتحديد بعضها وتحليلها من خلال المؤلفين قصد بيان أثرها الحجاجي ومدى فاعليتها في الردود النقدية. وسنبداً بتحديد مفهوم الرابط الحجاجي وبيان أصنافه.

1 - الرابط الحجاجي **connecteur argumentatif**

مفهوم الرابط يوسّع مفهوم العاطف التقليدي بجمع عبارات تنتمي إلى مقولات نحوية متنوعة، من أدوات العطف، وأدوات وعبارات الربط التعليقي والردائف، وتحليلها " يبرز الوظيفة المشتركة بين هذا القسم من الكلمات، وهي الربط الذي تحدثه بين السياق اللغوي_يمين_ والملفوظ الذي يتصل به وذلك المفوظ نفسه. وهدفها أن تكون أقساماً صغرى، حسب طبيعة هذا الرابط الدلالية كالمقياس وإعادة الصياغة و التعداد أو المحاجة" (1). والروابط الحجاجية تعدّ "المؤشر الأساسي والبارز، والدليل القاطع على أنّ الحجاج مؤشّره في بنية اللغة نفسها، والروابط الحجاجية كثيرة في اللغة العربية شأنها في ذلك، شأن اللغات الطبيعية الأخرى بحيث يمكن أن نذكر منها ما يلي : بل، لكن، إذن، لاسيما، حتى، لأنّ، بمأنّ، إذ، إذا، الواو، الفاء، اللام، كي....." (2). وكتاب - الفلك الدائر على المثل السائر- يحوي مجموعة من هذه الروابط، سنقتصر على بعضها قصد دراسة استعمالاتها الحجاجية فقط، دون مراعاة جوانبها الأخرى (التركيبية، النحوية، المعجمية...) و يمكن تصنيف هذه الروابط إلى فئات تتمثل في:

(1) باتريك شارود، ص 127 .

(2) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 55 .

* الربط في الفرنسية يحدث خلافا للعربية تجاه اليسار .

- الروابط المدرجة للحجج .
- الروابط المدرجة للنتائج .
- روابط التعارض الحجج .
- * التساوق الحجج .

1-1 الروابط المدرجة للحجج :

تعدّ ألفاظ التعليل من الأدوات اللغوية التي استعملها ابن الأثير لتركيب خطابه الحجج و بناء حججه فيه كما نجد الشيء نفسه في الخطاب المضاد (الردّ) لابن أبي حديد، وأهمّ هذه الروابط: **الرابط الحجج " لأنّ "** :

" الذي يستعمل لتبرير الفعل كما يستعمل لتبرير عدمه ونجده في قول ابن الأثير وقد غلط أبو تمام في قوله :

بالقائم الثامن المستخف اطّادت قواعد الملك ممتدّا لها الطّول.

و الصواب اتّطدت بالتاء، لأنّ التاء تبدل من الواو في موضعين: أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع، لأنّك إذا بنيت افتعل من الوعد قلت اتّعد، وهنا يجب أن يكون اتّطد لأنّه من وطد يطد مثل وعد يعد، فإذا بني افتعل قيل اتّطد ولا يقال اطّاد (1).
بدأ ذكر النتيجة : الصواب اتّطدت بالتاء .

ثمّ الرابط الحجج لأنّ.

بعدها الحجّة: التاء تبدل من الواو في موضعين .

فالرابط الحجج "لأنّ" ربط بين النتيجة والحجّة، إذ قدّمت عليه النتيجة وتبعته الحجّة لتعلّل النتيجة المطروحة ثمّ أضاف حجّتين تتعلّقان بالموضع الأوّل فقال:
النتيجة: أحدهما مقيس (عليه كهذا الموضع (اتّطد) .
الرابط: لأنّ .

الحجّة 1: إذا بنيت افتعل من الوعد قلت اتّعد.

الحجّة 2: من وطد يطد، مثل وعد يعد .

(1) المثل السائر، ج1، ص48.

وهنا استعمل ابن الأثير الرابط لأنّ للتعليل ولتحقيق الانسجام في نصّه المكتوب، وهو ما دفع ابن أبي حديد للردّ عليه فنقض قوله في القضية نفسها واستعمل نفس الرابط حيث قال: «قرأت بخطّ أبي زكريا رحمه الله: قال العلماء: اشتقاق اطّادت من الطّود وهو الجبل بني على افتعلت من ذلك فقيل اطّادت لنا غير مهموز لأنّ تاء الافتعال إذا كان بعدها تاء قلبت ألفا ثمّ همزها في الشّعر للضرورة»⁽¹⁾.

فالنّتيجة: اطّادت من الطّود وهو الجبل (فقيل اطّادت لنا غير مهموز).

الرابط الحجاجي: لأنّ

الحجّة: تاء الافتعال إذا كان بعدها تاء قلبت ألفا ثمّ همزها في الشّعر للضرورة. فالردّ هنا بني على النّقض والهدم بالاعتراض المعلّل بفضل الحجّة الداعمة للنّتيجة بواسطة الرابط ممّا وجّه الخطاب بأكمله نحو النّتيجة المضادة: قول أبي تمام صائب.

الرابط الحجاجي لام التعليل:

لام التعليل سواء أكانت لام كي (لكي) أو اللام الناصبة للفعل المضارع وكذلك اللام الجارّة، إذ تستعمل لتقديم حجج الدعم قصد تحقيق النّتيجة كما أنّها تربط بين الحجّة و النّتيجة حيث استعملها ابن أبي حديد في ردّه على ابن الأثير حين غلّط مفسّري الأشعار لعدم كشفهم عمّا فيه من أسرار البلاغة والفصاحة فقال: «إنّ مفسّري الأشعار جعلوا قصدهم وكدهم كشف مراد الشاعر ليعلم»⁽²⁾.

النّتيجة: مفسّروا الأشعار جعلوا قصدهم وكدهم كشف مراد الشاعر.

الرابط الحجاجي: لام التعليل.

الحجّة: يعلم (علم و معرفة قصد الشاعر وغايته). فالرابط الحجاجي تموضع مباشرة بعد إلقاء النّتيجة وجاء مرتبطاً بالحجّة ليعلّل ويفسّر ويضمن سلامة النّتيجة المطروحة. إذ هدف مفسّري الأشعار إعلام الناس مراد الشاعر.

ومثال اللام الجارّة التعليلية ردّه على ابن الأثير حين استشهد بقوله تعالى (إنّما يخشى

(1) الفلك الدائر على المثل السائر، ص 45.

(2) ينظر، المرجع نفسه، ص 39.

الله من عباده العلماء)*¹ فيما لا يفهم إلا بعلامة وهو قسم من أقسام الفاعل والمفعول فقال: "أقول إن هذه الآية لا مدخل لها في هذا الموضع لعلمنا أن الله لا يخشى أحدا لا من العلماء ولا من غيرهم"⁽²⁾.
النتيجة: الآية لا مدخل لها في هذا الموضع .
الرابط الحجاجي : لام التعليل .

الحجة : علمنا أن الله لا يخشى أحدا لا من العلماء ولا من غيرهم. فابن أبي حديد جعل من اللام وسيلة تعليلية توجه الخطاب نحو النتيجة المرغوبة وهي النقص فالنقص المعلل أساس الرد النقدي . كما يمكن استعمال روابط أخرى كالرابط الحجاجي من أجل :

قال ابن الأثير: فأما الإدغام فلا حاجة إليه لكاتب، لكن الشاعر ربما احتاج إليه، لأنه قد يضطر في بعض الأحوال إلى إدغام حرف أو فك إدغام من أجل إقامة الميزان الشعري" فرد عليه ابن أبي حديد قائلا إن المعرفة بأبواب الإدغام ومباحثه كما يحتاج إليه الشاعر لإقامة الميزان الشعري قد يحتاج إليه الكاتب للقرينة وقد يصيب فيه وقد يخطئ⁽³⁾.

النتيجة : قد يضطر في بعض الأحوال إلى إدغام حرف أو فك إدغام.
الرابط الحجاجي : من أجل .

الحجة : إقامة الميزان الشعري. كما نجد الرابط الحجاجي: لام التعليل في نفس المثال.
النتيجة : إن المعرفة بأبواب الإدغام و مباحثه كما يحتاج إليه الشاعر.
الرابط الحجاجي لام التعليل.

الحجة : إقامة الميزان الشعري.
النتيجة : قد يحتاج إليه الكاتب.
الرابط : لام التعليل.

1 * سورة فاطر، الآية 28 .

(2) ينظر، الفلك الدائر، ص 42 .

(3) المرجع نفسه، ص 47 .

الحجّة : القرينة. فالرابطين هنا لفظة من أجل ولام التعليل توسطاً الحجّة و النتيجة قصد التعليل والتفسير إضافة إلى الرابطين لكن ولأنّ. فالحجّة هنا تدعم النتيجة المطروحة بفضل الرابط الحجاجي " لام الجر" وتعلّها .
لقد وظّف المتناظران بعض الروابط المدرجة للحجج قصد تعليل وتبرير النتائج المطروحة مسبقاً ومحاولة التأثير في المتلقّي بتحقيق الانسجام النصّي و إعطاء القول وجهة و قوّة .

1-2 الروابط المدرجة للنتائج :

نجدها موظّفة في كتاب الفلك الدائر لإظهار حاصل القول، ومنها **الرابط الحجاجي** إذن: " : تعمل " إذن " حجاجيا وذلك بربطها بين الحجّة و النتيجة، أي أنها تدرج النتيجة بعدها، ويتبيّن لنا عملها ممّا يأتي : يقول ابن أبي حديد ردا على ابن الأثير في مسألة مدّة حمل مريم عليها السّلام ووضعها من خلال عمل الفاء (الفور أم التعقيب) .
"وفي القرآن من هذا الجنس الكثير الواسع **فإذن** لا يدلّ قوله تعالى(فانتبذت به مكانا قصيّا فأجاءها المخاض) أنّ ذلك كلّه كان في يوم واحد أو أقل"(1).
الحجّة : و في القرآن من هذا الجنس الكثير الواسع.
الرابط الحجاجي : إذن.

النتيجة : لا يدلّ قوله تعالى ... أنّ ذلك كلّه كان في يوم واحد أو أقل.
فهذا المثال يشتمل على حجّة و نتيجة مستنتجة منها و رابط حجاجي قام بالربط بينهما . (بين الحجّة و النتيجة). كما وظّف هذا الرابط في ردّ آخر على ابن الأثير في قضية التطويل الذي لا حاجة إليه في بيت: العجير السلولي .
طلوع الثنايا بالمطايا وسابق إلى غاية من يبتدئها يقدم .

" ثمّ بيّن أنّ أحد القسمين إن كان هو المراد فالمطايا فضلة زائدة وهو المطلوب، ثمّ قال، وإن كان القسم الثاني هو المراد فالثنايا فضلة زائدة، فإنّ استدلاله لا ينتج

(1) الفلك الدائر، ص 264 .

المطلوب " (1).

الحجة 1 : ثم بين أن أحد القسمين إن كان هو المراد فالمطايا فضلة زائدة وهو المطلوب.

الحجة 2 : و إن كان القسم الثاني هو المراد فالثنايا فضلة زائدة .
الرابط الحجاجي : إذن.

النتيجة : استدلاله لا ينتج المطلوب .

فهذا المثال اشتمل على حجتين ونتيجة مستنتجة منهما و رابط حجاجي (ربط بينهم).
و نتبين ممّا ذكرناه أنّ الرابط الحجاجي "إذن" بالإضافة إلى ربطه بين الحجة
والنتيجة يمهدّ للتصريح بحاصل القول، ممّا يجلب انتباه المتلقّي ويقوّي تركيزه فتكون
فاعليّة الحجج أجدى وأنفع فيحدث التأثير والاقتناع .

فابن أبي حديد في ردّه على ابن الأثير وظّف الرابط إذن ليكون ما بعده نقيضاً لما
أورده ابن الأثير والنتيجة النهائية التي يؤول إليها الخطاب . والشيء نفسه ينطبق على
الرابط الحجاجي لذلك عند ابن الأثير في حدّ الكناية - كقوله تعالى (أولامستم النساء) .
فإنه يصح المعنى ولا يختلّ بالحمل على كلّ واحد من المعنيين، وهما الجماع
والصاق الجسد بالجسد، ولذلك ذهب أبو حنيفة والشافعي إلى كلّ واحد من
القولين" (2) فهذا المثال يحمل حجة و رابطا حجاجيا مدرجا للنتيجة ونتيجة مستخلصة
من الحجة .

الحجة : فإنه يصح المعنى و لا يختل بالحمل على كل واحد من المعنيين
الرابط الحجاجي: لذلك.

النتيجة: ذهب أبو حنيفة والشافعي إلى كلّ واحد من القولين، (فجواز المعنيين جعل
كلّاً من الفقهاء يتّجه إلى أحدهما) .

(1) ينظر الفلك الدائر ، ص 272 - 273 .

(2) المرجع نفسه، ص 292 .

1-روابط التعارض الحجاجي:

"لكن" و "بل" من الروابط الحجاجية التداولية ذات الاهتمام الواسع في الدراسات الحديثة حيث ميّز ديكر و "و" أنسكومبر " في دراستهما العديدة للأداة " mais " بين الاستعمال الحجاجي والاستعمال الإبطلائي Réfutation، وإذا كانت اللغة الفرنسية تشمل على أداة واحدة تستخدم للحجاج والإبطال، فإن لغات أخرى تتوفر على أداتين: أداة للحجاج، وأخرى للإبطال، ويمكن أن نذكر من بين هذه اللغات، اللغة الإسبانية (Sino و pero) والألمانية (Aber و Sondern) والعبرية (Aval، ilay) والعربية (بل، لكن)، ولكن اللغة العربية، وإن كانت تلتقي مع الإسبانية والألمانية في توفرها على أداتين، فإنها تختلف عنهما (وتلتقي في هذا مع الفرنسية) في أن كلّ أداة، أي أنّ كلاً من "بل" و"لكن" تستعمل للحجاج والإبطال⁽¹⁾. ويمكن تلخيص هذا الوصف الحجاجي كما يلي: "إنّ التلفظ بأقوال من نمط "أ" لكن "ب" يستلزم أمرين اثنتين - أنّ المتكلم يقدم "أ" و "ب" باعتبارهما حجّتين، الحجّة الأولى موجّهة نحو نتيجة معينة "ن"، والحجّة الثانية موجّهة نحو النتيجة المضادة لها، أي " لا - ن ".

- أنّ المتكلم يقدم الحجّة الثانية باعتبارها الحجّة الأقوى، وباعتبارها توجّه القول أو الخطاب برمته (2). وما نستخلصه من هذا الكلام أنّ كلاً من "لكن" و "بل" الحجاجيتين تعلمان تعارضاً حجاجياً بين ما يتقدم الرابط وما يليه. كما أنّ القسم الأوّل " أ " يتضمن حجّة تخدم النتيجة " ن ".

والقسم الثاني " ب " يتضمن حجّة تخدم النتيجة المضادة " لا - ن ". وبما أنّ الحجّة الثانية أقوى من الحجّة الأولى، فإنّها ستوجّه القول بمجمله نحو النتيجة " لا - ن ".

وسنحاول تطبيق ما سبق ذكره على كتاب الفلك الدائر على المثل السائر، قصد بيان استعمالاتها الحجاجية وأثرها في توجيه المناظرة النقدية .

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 57 .

(2) المرجع نفسه، ص 58 .

الرابط الحجاجي لكن:

تعبّر لكن بنوعيتها المخففة والمتقلّبة، الحجاجية والإبطالية دائماً عن معنى التعارض والتنافي بين ما قبلها وما بعدها، وهو ما أكّده جلّ النحاة العرب القدماء.

يقول المرادي " ولا تقع " لكن " إلاّ بين متنافيين، بوجه ما، فإن كان ما قبلها نقيضاً لما بعدها نحو (قام زيد لكنّ عمرا لم يقم) جاز بلا خلاف، وإن كان خلافاً نحو : (ما أكل لكنه شرب) ففيه خلاف والظاهر الجواز وإن كان وفاقاً يجز بإجماع"⁽¹⁾. ويرى الرّماني أنّها "تتوسط بين كلامين متغايرين نفيًا وإيجابًا يستدرك بها النفي بالإيجاب، والإيجاب بالنفي"⁽²⁾. فحين خطأ ابن الأثير أبا نواس في بيت يصف فيه الخمر:

كأنّ صغرى و كبرى من فواقعها حصباء درّ على أرض من الذهب .

بقوله صغرى و كبرى غير جائز، لأنّ فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنّما يجوز حذفها من فعلى التي لا أفعل لها نحو حبلى إلاّ أن تكون فعلى أفعل مضافة فردّ عليه ابن أبي حديد بقوله: إنّنا لا ننكر أنّ كثيرا من أئمة العربية طعن في هذا البيت لكنّ كثيرا منهم انتصر له "⁽³⁾. ففي هذا المثال تعمل " لكنّ " تعارضا حجاجيا بين ما يتقدّم الرابط و ما يليه، فالقسم الأوّل (لا ننكر أنّ كثيرا من أئمة العربية طعن في هذا البيت) حجة أولى تخدم نتيجة ضمنية من قبيل (أئمة اللّغة العربية يخطئون أبا نواس في هذا البيت). أو (بيت أبي نواس مهلهل) إلى غير ذلك من النتائج الضمنية .

أمّا القسم الثاني (كثير منهم انتصر له) فهو حجة ثانية تخدم نتيجة مضادة للأولى من قبيل (أئمة العربية يقرّون بصحة بيت أبي نواس) أو (بيت أبي نواس محكم). فهنا تكون الحجة الثانية أقوى من الحجة الأولى لأنّ القول بمجمله يؤول نحو النتيجة المضادة، وهي النتيجة الضمنية التي جاءت بعد الرابط "لكنّ".

(1) المرادي الحسن بن القاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983 .

(2) الرّماني : (أبو الحسين علي بن عيسى)، معاني الحروف، تحقيق عرفان بن سليم العشا حسونة المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005، ص196.

(3) ينظر الفلك الدائر على المثل السائر، ص 61 .

فابن الأثير اعتمد القاعدة الصرفية لتبرير تغليطه أبا نواس أمّا ابن أبي حديد فقد ردّ عليه بطريقة منهجية حيث بدأ رده بإبداء نوع من التضامن مع ابن الأثير "إنّا لا ننكر أنّ كثيراً من أمّة العربيّة طعن في هذا البيت" بعدها مباشرة نقض اعترافه ونفى تضامنه بفضل الرابط الحجاجي لكنّ فقال "وكثير منهم انتصر له". فبعد أن أوهم مناظره بالتسليم بالدعوى فاجأه بنقضها مباشرة فوجّه الخطاب بأكمله نحو القول الثاني ممّا يبيّن وظيفة الرابط الحجاجي ودوره في الردود، إضافة إلى ما أورده من شواهد شعريّة داعمة كقول بشامة بن جزء (حزن) النهشلي:

إنّا محيوك يا سلمى فحيينا وإن سقيت كرام الناس فاسقينا .

وإن دعوت إلى جلى وكرمة يوماً سراة كرام الناس فادعينا .

و في موضع آخر قال ابن أبي حديد : "ولو أخذنا تناقضه في هذا لأطلنا كما أطال و سمجنا كما سمجو لكنّا قد نكلّمه في بعض المواضع منها:(¹)".

ففي هذا المثال نجد "لكن" تربط كذلك بين حجتين، الحجّة الأولى (قبل لكنّ) "لوأخذنا

تناقضه في هذا لأطلنا كما أطال وسمجنا كما سمج " تخدم نتيجة ضمنية من قبيل

(امتنعنا عن تتبّع تناقضاته الكثيرة حتّى لا نطنب ونفسف). أو من قبيل (السكوت

والإحجام عن تتبّع تناقضاته الكثيرة أفضل)، أمّا الحجّة الثانية (بعد لكنّ) "قد نكلّمه في

بعض المواضع" فهي تخدم نتيجة ضمنية معارضة للنتيجة الأولى التي جاءت قبل

الرابط الحجاجي "لكن" وهذه النتيجة من قبيل مناقشة بعض تناقضاته أفضل "أو"

إظهار بعض تناقضاته خير من السكوت عنها كلها). وهنا الحجّة الثانية

أقوى من الحجّة الأولى ومعارضة لها فتكون النتيجة المضادة، هي النتيجة التي

يوول إليها الكلام برمته .

و يمكن تمثيلها بهذا الشكل:

(1) ينظر، الفلك الدائر على المثل السائر، ص 233 .

(ن)

السكوت و الإحجام عن تتبّع
تناقضاته الكثيرة أفضل

(لا-ن)

إظهار بعض تناقضاته
خير من السكوت عنها كلّها.



لو أخذنا تناقضه في هذا لأطننا و سمجنا

قد نكلّمه في بعض المواضع

كما سمج (ح1)

منها (ح2)

النتيجة بمجملها تؤول ل (لا-ن)

و كذلك الرابط الحجاجي "بل" ، فإنّه يستعمل للإبطال وللحجاج مثل "لكنّ" ويقول
الرماني عن "بل" هي من الحروف الهوامل ومعناها الإضراب عن الأوّل والإيجاب
للثاني⁽¹⁾. ونمثّل له بقول ابن الأثير في معنى بيتين لأبي الطيب المتنبّي.
"فإنّ هذا يحتمل المدح والذّم بل هو بالذّم أشبه، لأنّه يقول إنك لم تبلغ ما بلغته بسعيك
و اهتمامك بل بجّد و سعادة"⁽²⁾. هنا "بل" الأولى إيطالية، إذ صار ما قبلها كالمسكوت
عنه ، وأثبتت الحكم لما بعدها. أمّا "بل" الثانية، فهي من النمط الحجاجي، إذ تعدّ رابطا
حجاجيا، فالرابط الحجاجي "بل" يقيم علاقة حجاجية مركبة من علاقتين حجاجيتين
علاقة بين الحجّة الأولى التي ترد قبل الرابط الحجاجي "بل" وهي (إنك لم تبلغ ما بلغته
بسعيك و اهتمامك) والتي تحمل نتيجة ضمنية من قبيل: ورثت العرش أو الإمارة .
وعلاقة حجاجية ثانية ترد بعد "بل" وهي (بجّد و سعادة) وتحمل نتيجة ضمنية من
قبيل (نلت ما نلته بالحظ وهي متاحة لكلّ - الخامل والكسول)
منصّبك متاح للجميع. فهذه النتيجة سارت في اتجاه مضاد للنتيجة السابقة ويمكن
تمثيلها كما يأتي:

¹(1) الرماني : معاني الحروف، ص 71 .

²(2) المثل السائر، ج1، ص 65 .

منصبك متاح للجميع (لا-ن)



ورثت العرش (ن)

إنك لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك .



(ح2)

(ح1)

بل

النتيجة بمجملها : منصبك متاح للجميع تؤول : (لا-ن)

حيث ح1 و ح2 حجتان ، و "ن" تشير إلى النتيجة ، و (لا - ن) تشير إلى النتيجة المضادة للنتيجة السابقة ، و الرمز \square يشير إلى العلاقة الحجاجية التي تختلف عن علاقة الاستلزام المنطقي، والرابط "بل" يربط بين الحجج والنتائج و (لا - ن) ستصبح نتيجة القول برمته . فالحجة التي تأتي بعد الرابط تكون أقوى

من الحجة التي ترد قبله وتوجه القول بأكمله نحو النتيجة المضادة .

من خلال تحليلنا للرابطين الحجاجيين " لكن " و " بل " نستنتج أنهما :

* يربطان بين حجبتين متعارضتين.

* يقيمان علاقة حجاجية بين الحجة والحجة أو بين الحجة والنتيجة.

* الحجة التي ترد قبل الرابط تحمل نتيجة ضمنية نرمز لها ب " ن " .

* الحجة التي ترد بعد الرابط تحمل نتيجة ضمنية معارضة للنتيجة التي ترد قبل

الرابط و نرمز لها ب (لا - ن) .

* الحجة التي ترد بعد الرابط تكون أقوى من الحجة التي ترد قبله .

* القول بمجمله يؤول إلى النتيجة المضادة (لا - ن) . فنظرية " ديكرو" المسمّاة

"نظرية الحجاج في اللغة" توحد في صورتها القصوى العلاقة ، حجة نتيجة بعلاقة

الدلالة، باعتبار معنى الملفوظ (الحجة) ما يتلوه (النتيجة التي يقصد إليها) وهي

تعمّم هذا الأسلوب في الوصف على كلّ استعمالات لكنّ وتعمّمها نظرياً على كلّ الروابط (1).

1-4 روابط الحجاج التساوقية:

هي روابط حجاجية تقوم بالربط بين الحجج والتنسيق بينها منها، حروف العطف "الواو" و"الفاء" و"ثمّ". إذ تعمل على ترتيب الحجج ونسجها في خطاب واحد متكامل فنفصل مواضع الحجج، بل وتقوي كلّ حجة منها الحجّة الأخرى (2). منها الواو في ردّ ابن أبي حديد على ابن الأثير الذي قال أنّ شعر المتنبّي يحتمل المدح والذمّ فقال "ولكنّ سيف الدولة لما اشتهر بإخلاص أبي الطيب في ولائه عدل الناس عن هذا الشعر الذي يتضمن ذكر الجدّ والحظّ، فلم يذكره، ولم يجعله موجّهاً متوسطاً بين المدح والذمّ، وقالوا ذلك في كافور لما حدث تغييره مع أبي الطيب، وانحرف كلّ واحد منهما عن صاحبه ومجاهرة أبي الطيب له بعد مفارقتة بالهجاء" (3). فالحجج جاءت متّسقة وغير منفصلة وكذلك كلّ حجة تقوم بتقوية الحجّة الأخرى وذلك بفضل الرابط الحجاجي "الواو". وهذا الاتساق يتوسّل به المناظر لتقوية حجه وتدعيم رأيه قصد التأثير في المتلقّي وإقناعه. أمّا ابن الأثير فقد توسّل برابط تساوقي آخر لتأكيد تقارب حمل مريم ووضعها وهو الفاء في قوله: اختلف الناس في حمل مريم عليها السلام كم مدّته... والصحيح أنّ حملها ووضعها كانا متقاربين على الفور من غير مهلة ربّما كان ذلك في يوم واحد أو أقلّ، لقوله تعالى: (فحملته فانتبذت به مكانا قصياً، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة). لأنّه عطف بالفاء وهي للفور ولو كان هناك تراخ لعطف بثمّ التي تفيد المهلة (4). فردّ عليه ابن أبي حديد بنقض ما ذهب إليه لأنّ الفاء للتعقيب وليست للفور (5) كما اعتقد، ثمّ أورد شواهد قرآنية عديدة تدعّم

(1) باتريك شارود، معجم تحليل الخطاب، ص 129.

(2) ينظر، استراتيجيات الخطاب، ص 472.

(3) الفلك الدائر، ص 63.

(4) المرجع نفسه، ص 263.

(5) المرجع نفسه، ص 264.

رأيه منها قوله تعالى (و أنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى)⁽¹⁾. وليس خروج النبات عقب إنزال المطر بل هو متراخ عنه. فابن الأثير أراد دعم نتيجته تقارب حمل ووضع مريم عليها السلام فاعتمد حججا متساوقة تدعم كل منها الأخرى وتقويها لتؤدي مجتمعة النتيجة المذكورة معتمدا الرابط التساوقي الفاء الذي استمد حجتيه من ربطه بين الحجج (التساوق) ومن معناه الفور.

إلا أن ابن أبي حديد استثمر ثقافته الواسعة وقدرته الاستدلالية ليثبت بطلان دعوى ابن الأثير فاعتمد شواهد تعادل شواهد (القرآن الكريم) مبيّنا من خلالها أن الفاء للتعقيب ومنه نتبين الاستعمالات الحجاجية للروابط وأثرها في توجيه المناظرة النقدية.

2- العوامل الحجاجية :

الروابط الحجاجية les connecteurs تربط بين قولين أو بين حجّتين على الأصحّ (أو أكثر) وتسدّد لكلّ قول دورا محدّدا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة.

أمّا العوامل الحجاجية، فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجّة ونتيجة أو بين مجموعة حجج) ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربّما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما.....إلا، وجلّ أدوات القصر"⁽²⁾. ومنها العامل العامل الحجاجي لا.....إلا في تبرير ابن الأثير تغليطه أبا نواس في البيت الشعري :

كأنّ صغرى و كبرى من فواقعهما حصباء درّ على أرض من الذهب .

إنّ فعلى أفعال لا يجوز حذف الألف واللام منها إلا إذا أضيفت (³) نحّلها حججيا كما يلي : إنّ فعلى أفعال لا يجوز حذف اللام منها إلا إذا أضيفت، وفعلى أفعال لا يجوز حذف اللام منها إذا أضيفت.

تخدمان نتيجة من قبيل: فعلى أفعال لا تحذف لامها إلا نادرا. فابن الأثير في هذا المثال أراد أن يبيّن ندرة حذف لام فعلى أفعال وحصرها فاستعمل روابط التعارض

(1) سورة طه، الآية 16.

(2) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 27 .

(3) المثل السائر، ج1، ص 43.

الحجاجي التي تفيد التقليل والتحديد. وردّ ابن أبي حديد على ابن الأثير فيما يخص تقديم الخبر على المبتدأ في قوله تعالى: "و ظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله". وباستعمال نفس العامل الحجاجي إنّ حصونهم لا ترفع بأنّها مبتدأ كما ظنّه إلاّ على وجه ضعيف (1). وإذا حللنا هذا القول حجاجيا نجده كما يأتي: إنّ حصونهم لا ترفع بأنّها مبتدأ كما ظنّه إلاّ على وجه ضعيف. و(حصونهم ترفع بأنّها مبتدأ كما ظنّه على وجه ضعيف) تخدمان نتيجة ضمنية من قبيل: اعتبار حصونهم مبتدأ احتمال ضعيف. فقد استعمل ابن أبي حديد روابط التعارض الحجاجي لأنها روابط تقتضي هذه الأقوال فقط، وربما حاول كذلك التقليل من القيمة والإمكانات الحجاجية التي تتيحها هذه العوامل، إذ أنّها ترتبط بالمقاصد والوجهة التي يريد أن يصل إليها المتكلّم. وفي موضع الالتفات استعمل ابن الأثير العامل الحجاجي إنّما بقوله: وقال الزمخشري رحمه الله "إنّ الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنّما يستعمل للتفنّن في الكلام...." ولو سلّمنا إلى الزمخشري ما ذهب إليه لكان إنّما يوجد ذلك في الكلام المطوّل و نحن نرى الأمر بخلاف ذلك (2). عند تحليلنا القول حجاجيا نجد أنّ الحجّة: إنّما يوجد ذلك في الكلام المطوّل تسير في نفس الاتجاه مع الحجّة: يوجد ذلك في الكلام المطوّل، وتخدمان نفس النتيجة من قبيل: الالتفات موجود في الكلام المطوّل، ورغم خدمتهما نفس النتيجة وسيرهما في نفس الاتجاه إلاّ أنّ هناك فرق بينهما، لذلك اختار ابن الأثير التعبير الأوّل (العامل الحجاجي إنّما) لأنّه رغب في قصر الالتفات على الكلام المطوّل دون سواه ليدحض قول الزمخشري.

فردّ عليه ابن أبي حديد في نفس الموضوع (الالتفات) موظفا نفس العامل الحجاجي "إنّما" فقال بعد تعليل صحّة قول الزمخشري وتوضيحه "والجواب عن الموضعين واحد، وهو أنّ ذلك إنّما يكون بحسب ما تقتضيه الحاجة" (3). إذ نجد الحجّة: إنّما يكون بحسب ما تقتضيه الحاجة .

(1) ينظر الفلك الدائر، ص 251 _ 252 .

(2) ينظر المثل السائر، ج1، ص168-169.

(3) ينظر الفلك الدائر، ص 226.

والحجّة: يكون بحسب ما تقتضيه الحاجة، تسييران في الاتجاه نفسه و تخدمان نتيجة من قبيل: الالتفات حسب اقتضاء المصلحة . ومع أنّ العامل الحجاجي واحد (إنّما) واستعمل في قضية واحدة (الالتفات) إلا أنّ حاصله مختلف فالنتيجتان مختلفتان، لأنّ كلّ مناظر استعمله حجاجياً بطريقة أثر بها في توجيه المناظرة النقديّة . فبعد أن كان الزمخشري مخطئاً في نظر المتلقّي بسبب ما قاله ابن الأثير صار مصيباً بما قاله ابن أبي حديد وذلك بفضل الخلفيّة المعرفيّة والثقافيّة وكذا القدرة الاستدلاليّة والإبداعية (الفنيّة) لكلّ مناظر.

3- السّلم الحجاجي :

السّلم الحجاجي من مقتضيات النظرية الحجاجية اللسانية، إذ تتجلى فيه العلاقة المجازية بين الدعوى والحجّة، لتصبح علاقة شبه منطقية إلى حدّ ما، تجسّدُها الأدوات اللّغوية، فيتمثّل صلب فعل الحجاج في تدافع الحجج وترتيبها حسب قوتها، إذ لا يثبت غالبا إلاّ الحجّة التي تفرض ذاتها على أنّها أقوى الحجج في السياق، ولذلك يرتّب المرسل الحجج التي يرى أنّها تتمتع بالقوّة اللازمة التي تدعم دعواه وهذا الترتيب هو ما يسمى بالسّلم الحجاجي" (1). وقد لاحظ "ديكرو وهو يشرع في تحديد مفهوم السّلام الحجاجية أنّ كثيرا من الأفعال القولية، ذات وظيفة حجاجية، فتوجّه المتلقّي نحو نتيجة معيّنة، أو تحوّل وجهته عنها، وأنّ لهذه الوظيفة علامات في بنية الجملة نفسها، ذلك أنّ القيمة الحجاجية للمقول، لا تنتج فقط من المعلومات التي يحملها، وإنّما يمكن للجملة أن تستخدم صرفات أو عبارات أو صيغا أسلوبية، لإسناد الوجهة الحجاجية للمقول. أي أنّ المقول يحمل في ذاته تعبيرا عن السمة الحجاجية، وهي سمة تتوزع حسب المتكلمين وتبعا لأوضاع الخطاب، فلا أحد يستطيع أن يتوقع:النتيجة (ن) المقترحة من (م) والمفندة بواسطة (ب) . لكن بإمكاننا أن نتوقّع، انطلاقا من الجملة أنّ: (م) و (ب) لا يقدّمان لذاتهما، بل يوجّهان إلى نفس النتيجة وإن كانا لا يملكان نفس الدرجة من

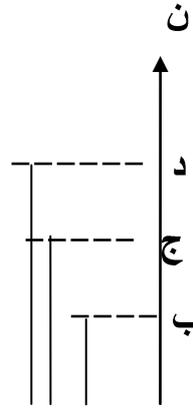
(1) ينظر استراتيجيات الخطاب، ص 499، 500.

القوة" (1). وعرفه الدكتور طه عبد الرحمان بأنه "عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين:

أ: كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب: كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه: (2). وللسلم الحجاجي (حسبما ذكر / طه عبد الرحمان) ثلاثة قوانين :

أ: قانون الخفض: ومقتضاه "إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها" (3). مثلاً قضية الالتفات عند الزمخشري حجة إثبات اقتضاه على الكلام المطول عند ابن الأثير يمثل القول الصادق في مراتب معينة من السلم، وقول ابن أبي حديد (في المناقضة) يصدق في المراتب التي تقع تحتها. وجسد هذا القانون السلمي في الصورة الآتية:



ب: قانون تبديل السلم:

ومقتضاه "إذا كان القول دليلاً على مدلول معين فإن نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله" (4). فهذا القانون مرتبط بالنفي، فإذا كان قول ما "أ" مستخدماً من قبل متكلم ما ليخدم نتيجة معينة، فإن نفيه أي "أ" سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة (1).

(1) محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص 94 - 95 .

(2) د. طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 276 .

(3) المرجع نفسه، ص 277 .

(4) طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص 278 .

ففي قضية الالتفات (المشار إليها سابقاً) ابن الأثير أثبت قصر الالتفات على الكلام المطول — نتيجة أولى، وابن أبي حديد نفى ذلك — نتيجة مضادة .

فكان نفيه حجة لصالح النتيجة المضادة (ما قاله ابن أبي حديد).

ج: قانون القلب:

يرتبط هذا القانون بالنفي أيضاً ومقتضاه " أن السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية، وبعبارة أخرى، إذا كان " أ - أقوى من " أ " بالقياس إلى النتيجة " ن " فإن " أ " هو أقوى من " أ - " بالقياس إلى " لا - ن " (2) فإذا كانت حجة ابن الأثير أقوى من حجة ابن أبي حديد في التذليل على قصر الالتفات على الكلام المطول فإن حجة ابن أبي حديد أقوى من حجة ابن الأثير في التذليل على ورود الالتفات حسب الحاجة. فإذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التذليل على مدلول معين، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التذليل على نقيض المدلول " (3). و لنوضح هذا بالمثالين الآتيين :

- اعترض الفلك الدائر على المثل السائر، وحتى أنه محاه.

- لم يمح الفلك الدائر المثل السائر، بل لم يعترض عليه. فمحو الفلك الدائر المثل السائر دليل على قوة ردوده النقدية في حين أن عدم اعتراضه عليه هو الحجة الأقوى على ضعف الردود من عدم محوه. و نمثله بما يأتي:

↑	ن: قوة الردود النقدية .	↑
_	_ محاه الفلك الدائر المثل السائر.	_
_	_ اعترض الفلك الدائر على المثل السائر.	_
_	_ لا - ن	_
_	_ ضعف الردود النقدية .	_
_	_ لم يعترض الفلك الدائر المثل السائر.	_
_	_ لم يمح الفلك الدائر المثل السائر.	_

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 22 .

(2) م ن، ص نفسها.

(3) طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص 278 .

على خلفية ما ذكرناه عن السّلم الحجاجي يمكننا تحديد بعض النماذج في كتاب الفلك الدائر على المثل السائر رغم كثرتها وذلك راجع لما يقتضيه النّقص من نفي لحجاج وإثبات لأخرى. قال ابن الأثير واعلم أنّ القياس لا يقتضي أن يقال :
(ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها) .⁽¹⁾ لأنه إذا قدّم الصغيرة لم يحتج إلى أن يقول ولا كبيرة، لأنّ وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذة على الكبيرة، وإذا لم يعف عن الصغيرة لم يعف عن الكبيرة.
و إذا قدّم في اللفظ الكبيرة احتاج إلى أن يقول ولا صغيرة، لأنّه لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة فاحتاج إلى أن يذكر ما قال. غير أنّ الكتاب العزيز أحقّ أن يتّبع فيقياس عليه فوجب ترك القياس لأجل هذه الآية⁽²⁾ . فابن الأثير أراد بيان ما يقتضيه القياس القولي.⁽³⁾ ونمثّله بما يأتي:

النتيجة : إذا قدّم الصّغيرة لم يحتج إلى أن يقول و لا كبيرة.

ح4 - لم يعف عن الكبيرة .

ح3 - لم يعف عن الصغيرة.

ح2 - وجود المؤاخذة على الكبيرة .

ح1 - وجود المؤاخذة على الصغيرة .

وذلك في حالتين: الحالة الأولى وجوب قول ولا كبيرة، فأورد حججا مرتبة حسب

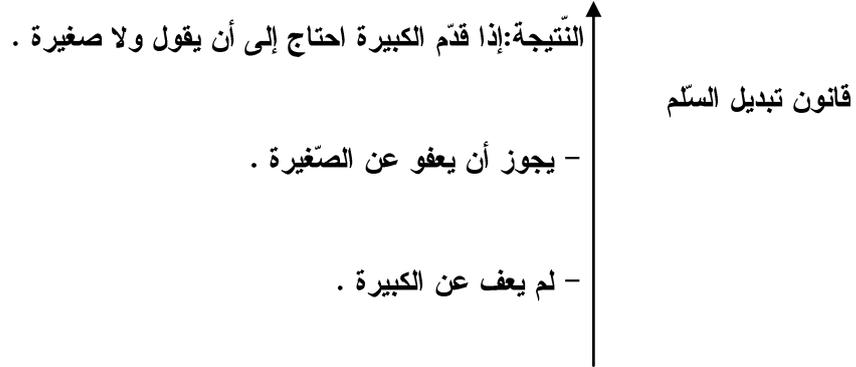
درجة قوتها وبدأ بنقضها دلالة على النتيجة وهي: "وجود المؤاخذة على الصغيرة "

(1) سورة الكهف، الآية 49، (الفلك الدائر، ص 238)

(2) سورة الكهف، الآية 49 .

(3) المثل السائر، ج2، ص 213 .

ثم أتى بحجة أقوى منها " وجود المؤاخذة على الكبيرة " لأنه من الطبيعي أن المؤاخذة على الصغائر تلزم و تستوجب المؤاخذة على الكبائر . بعدها جاء بالحجة الأكثر قوة وهي عدم العفو عن الصغائر الذي يلزم عنه عدم العفو عن الكبائر .
 أمّا الحالة الثانية (الجزء الثاني من القول) فيتعلّق بقانون تبديل السلم :



فالقول - لم يعف عن الصغيرة الذي كان دليلاً على عدم حاجته إلى أن يقول ولا كبيرة - صار نقيضه (يجوز أن يعفو عن الصغيرة) . دليلاً على نقيض حاجته إلى أن يقول ولا صغيرة).

هناك قضية أخرى تتعلق بالسلم الحجاجي وهي مفهوم القوة الحجاجية فهناك علاقة وطيدة بين مفهوم السلم الحجاجي والقوة الحجاجية إذ تعتبر الحجة التي تقع في أعلى درجة السلم الحجاجي هي الحجة الأقوى ، فكل الحجج متفاوتة من حيث القوة الحجاجية. ومصدر هذا التفاوت الحجة في حد ذاتها إن كانت جاهزة - نوعية الشاهد مثلاً : القرآن، الحديث، الشعر، كلام العامة... - وثقافة المتناظرين وقدرتهما الاستدلاليّتين، فحسن انتقاء الحجة وتوجيهها يكسبانها قوتها الحجاجية وللروابط الحجاجية دور في تفعيل هذه القوة الحجاجية ومنها (لكن - بل - حتى) فالأقوال التي ترد بعد هذه الروابط تكون أقوى حجاجياً وأعلى سلمياً من الأقوال التي ترد قبلها ويظهر ذلك في ردّ ابن أبي حديد على ابن الأثير فيما يخصّ القياس حيث قال : أمّا أوّلاً فإنّ هذه الآية لم تذكر لبيان المؤاخذة والعفو، ولا أنّ معنى قوله (لا يغادر صغيرة

و لا كبيرة) العقاب والغفران بل معناه الإحصاء و العدّ . (1) ويمكن توضيحها كالآتي :

- بل معناه الاحصاء و العدّ .
- و لا أنّ معنى قوله (لا يغادر صغيرة و لا كبيرة) العقاب و الغفران .
- هذه الآية لم تذكر لبيان المؤاخذة و العفو .

فالحجّة التي جاءت بعد الرابط الحجاجي هي التي وردت في أعلى السلم الحجاجي نظرا لما تحمله من قوّة حجاجية . فهو يريد نفي المعنيين الأولين وتأكيد المعنى الثالث . ونجد الشيء نفسه مع الرابط _ لكن _ حين قال ابن الأثير : " و ليس كلّ من حمل ميزانا سمّي صرّافا ، و لا كلّ من وزن به سمّي عرّافا " (2) .

فردّ عليه ابن أبي حديد بقوله : العرّاف هو الكاهن ، و ليس الوزن من الكهانة و لا يناسبها و لو قال و لا كلّ من وزن بخاطره أي لمح و نقد سمّي عرّافا ، فيجوز لكنّه تأويل بعيد

- لكنّّه تأويل بعيد
- لو قال : و لا كلّ من وزن بخاطره.... سمّي عرّافا فيجوز .
- ليس الوزن من الكهانة و لا يناسبها .
- أقول العرّاف هو الكاهن .

(1) الفلك الدائر ، ص 239 .

(2) المثل السائر ، ج 1 ، ص 87 .

بعد تحليلنا لبعض النماذج من السلم الحجاجي وجدنا أن كلاً من المتناظرين استعمل في حجاجه التدرج (السلم الحجاجي)، حيث يبدأ بالحجة الضعيفة لينتهي إلى الحجة القوية إضافة إلى فاعلية الروابط الحجاجية قصد إثبات صحة رأيه وتدعيم وجهة نظره و التأثير في متلقيه (مناظره).

4- أفعال الكلام :

تعتبر نظرية أفعال الكلام من الموضوعات الأساسية للسانيات التداولية، هذه الأخيرة تسعى للإجابة عن أسئلة مهمة: من يتكلم؟ و إلى من نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟ كيف نتكلم شيئاً و نريد شيئاً آخر⁽¹⁾. لهذا السبب هناك من يرى استحضر مقاصد التكلم وأفعال اللغة و بعدها التداولي و السياقي، كما أن هذه الأسئلة تنطبق على دراسة الخطاب الحجاجي اللفظي وهو يحوي بعدا تداولياً⁽²⁾. إذ قسم - أوستين - الجمل إلى :

- 1 - وصفيّة: تصف الكون ويمكن الحكم عليها بالصدق (خبرية) أو بالكذب .
- 2 - إنشائية: وتتميز بخصائص منها: أنها تسند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال و تتضمن فعلا من قبيل "أمر" و "وعد" و "أقسم" و "عمد" و يفيد معناه على وجه الدقة انجاز عمل⁽³⁾. بعدها أقرّ بأن كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، وميّز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية :

- 1 - العمل القولي: وهو العمل الذي يتحقق ما إن نلفظ بشيء ما .
- 2 - العمل المتضمن في القول : وهو العمل الذي يتحقق بقولنا شيئاً ما .
- 3 - عمل التأثير بالقول: وهو العمل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئاً ما (الإقناع)⁽⁴⁾.

(1) فرانسوا أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د ط، ص 5 .

(2) ينظر، م . ن، ص 6 .

(3) آن روبرول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة د. سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2003، ص 31 - 32 .

(4) المرجع نفسه، ص 32 .

ويقول د. أبو بكر العزاوي "إنّ التّصوّر التداولي للّغة الذي نجده عند فلاسفة اللّغة العادية من أمثال " أوستين" و"سورل" و"غرايس" ونجده في نظريّة الأفعال اللغويّة بشكل خاص، يرفض أن تكون اللّغة مجرد وسيلة لتمثيل الواقع أو الذهن، إنّها جهاز يمكن من إنجاز أفعال من نمط معيّن : الأمر والوعد والنهي والاستفهام والنصح والشكر والتهنئة والإنذار والوعد والوعيد والتطبيق والتعميد والتعجيب والتهديد وغيرها من الأفعال الكلامية العديدة والمتنوعة (1). وعلى هذا الأساس نعتبر الأفعال اللغوية عمدة التداولية التي تنفي حصر وظيفة اللّغة في التبليغ، بل تقرّ بتشكيلها فعلا يؤدّي إلى إنجاز شيء معيّن. وسنحاول دراسة بعض الأفعال اللغوية قصد بيان أثرها الحجاجي والإقناعي باعتبارها آلية من آليات الحجاج اللغوية. وكتاب الفلك الدائر على المثل السائر حافل بها، لكننا سنكتفي بتحليل بعضها كالأمّر، والاستفهام ونرى كيفية عملها حجاجيا.

4-1 الإستفهام :

"يتجاوز دور الأفعال اللغوية الدور المساعد في تركيب الخطاب، إذ يستعمل المرسل الاستفهام أو النفي أو الإثبات في الحجاج على أنّها الحجج بعينها. ويعدّ الاستفهام من أنجع أنواع الأفعال اللغويّة حجاجا وهو ما يتوسّل به الكثير في فعلهم " (2). ومنه قول ابن أبي حديد: وليت شعري كيف تحتاج البلاغة إلى التجنيس؟ أتراه يعلم ما البلاغة؟. ألم يسمع كلام عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع ومن جاء بعدهما من الكتاب، ومن كان قبلهما من فصحاء العرب الذين كلامهم محض البلاغة؟ فهل ترى لأحد منهم تجنيسا في كلامه اللهم إلا أن يقع ذلك اتفاقا غير مقصود قصده؟. (3). فابن أبي حديد يردّ بهذه الاستفهامات على مناظره الذي قال: أنّ البلاغة في حاجة إلى التجنيس.

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 116 .

(2) استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص 483 .

(3) الفلك الدائر على المثل السائر، ص 50 - 51 .

- وبالتالي يمكن اعتبار الاستفهام الأوّل حجةً تخدم نتيجة من قبيل: البلاغة ليست بحاجة إلى التجنيس. وتعتبر الاستفهامات الأخرى حججا داعمة للحجة الأولى:
- أترأه يعلم ما البلاغة؟ _____ ابن الأثير يجهل معنى البلاغة .
- ألم يسمع كلام عبد الحميد بن يحيى و ابن المقفع ومن جاء بعدهما من الكتاب الذين كلامهم محض البلاغة؟ _____ هو لم يطلّع على أعمال البلغاء.
- فهل ترى لأحد منهم تجنيسا في كلامه؟_____ لا يوجد تجنيس في كلامهم.
- اللهمّ إلا أن يقع ذلك اتفاقا غير مقصود قصده؟_____ القليل من التجنيس (صدفة).
- فهذه الاستفهامات تقوم على افتراضات مسبقة أي وفق ما يقتضيه السياق، وهي تحمل طاقة حجاجية تكمن في بيان عدم حاجة البلاغة إلى التجنيس وبالتالي توجيه المتلقي والتأثير فيه قصد إقناعه بهذه النتيجة.
- وفي موضع آخر يردّ ابن أبي حديد على ادعاء ابن الأثير تفرّد كتابه وعدم ادّعاءه فيما أُلّفه فضيلة الإحسان فيقول: وهل يدّعي أحد فضيلة الإحسان بأبلغ من هذا الكلام؟.
- فهذا الاستفهام يحمل افتراضا ضمنياً يمكن تأويله بهذا الشكل :
- أنت تقرّ أن كتابك متفرّد بين أصحابه.
- أنت تتكرّ فيما أُلّفته فضيلة الإحسان، والسّلامة من سبق اللسان .
- فكيف يكون ذلك؟(تناقض). النتيجة : أنت مدّع متفاخر .
- فمن خلال الاستفهام وجّه ابن أبي حديد الخطاب كما أراد بغية إقناع المتلقي و جعله يقف إلى جانبه .

4-2 الأمـر:

الأمر من الأفعال الإنجازيّة و لكنّه إنجاز ضمّني لأنّه يهدف إلى توجيه المتلقي إلى سلوك معيّن.

قال ابن أبي حديد: واعلم أنّ الشعراء مازالت على قديم الدّهر وحديثه يمدحون الرّئيس بعلوّ جدّه و مساعدة الأقدار له (1). إذا تأمّلنا هذا القول نجد الفعل اللغوي (اعلم)،أمرا

(1) الفلك الدائر، ص 65 .

أصدره ابن أبي حديد وهذا الأمر حجة يخدم نتيجة ضمنية تتحدّد حسب المخاطب المقصود .

- 1 - المخاطب (ابن الأثير) و مخاطبه متساويان مرتبة و ليست له سلطة عليه، فالنتيجة من قبيل: ألتمس منك تصحيح خطئك ومعرفة الصواب الذي هو ما قلته أنا .
- 2 -المخاطب:(القرّاء)، وللمخاطب السلطة (المعرفيّة) عليه فالنتيجة من قبيل: يجب عليكم معرفة الحقيقة.

وفي كلّ حالة: الحجّة صريحة والنتيجة ضمنية.

ونجد الأوامر الواردة في هذا الكتاب صيغت كلّها بهذا الشكل، قصد توجيه القول كما يراه هو (ابن أبي حديد) والسيطرة على ذن المخاطب .

3-4 النّفي والإثبات :

مثلما يكون الحجاج بالاستفهام، فإنّه يمكن أن يكون باستعمال النّفي⁽¹⁾.

وهو آلية من آليات خطاب الرّدود، حيث ردّ ابن أبي حديد على مناظره ابن الأثير الذي يرى أنّ البلاغيين اکتفوا بذكر أنّ الفصاحة هي الظهور، بقوله:
"وقد وقفت لأبي محمد الخشاب على رسالة في الفرق بين الفصاحة والبلاغة أتى فيها بنوادر شريفة، وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتاب "الصناعيين": كلاما جيّدا في هذا المعنى وقد ذكرنا نحن في كتاب "العقبري الحسان" أقوالا كثيرة في هذا الباب، وما أظن أنّ أحدا ممّن تصدّى للكلام في هذا الفن إلّا وقد قال قولا بليغا في هذه المسألة، فما أعلم كيف يدّعي هذا الرّجل على النّاس أنّهم يقتصرون في هذا البحث بتينك اللّفظتين لا غير"⁽²⁾.

فالمخاطب هنا استعمل الإثباتات والنوافي في الحجاج باعتبارها حججا بعينها لتقوية ردّه وضمان سلامة و فاعليّة قوله قصد التأثير في المتلقّي .
و نمثّل الإثبات كما يأتي :

(1) ينظر استراتيجيات الخطاب، ص 485 .

(2) الفلك الدائر على المثل السائر، ص 87 .

↑	ن	البلاغيون لم يكتفوا بما ذكرته
		وقفت لأبي محمد بن الخشاب على رسالة في الفرق بين الفصاحة و البلاغة
		أتى فيها بنوادر شريفة ح3
		ذكر أبو هلال العسكري في الصناعتين كلاما جيدا في هذا المعنى - ح2
		ذكرنا نحن في العبقري الحسن أقوالا كثيرة في هذا الباب ح1

أمّا النفي فتمثيله الآتي : - ما أظن أنّ أحدا ممّن تصدّى لكلام في هذا الفنّ إلاّ و قد قال قولاً بليغاً في هذه المسألة: حجة صريحة، تخدم نتيجة مضمرة من قبيل: كلّ متناول لهذه المسألة أسهب و أطنب فيها.

- ما أعلم كيف يدّعي هذا الرجل على الناس أنهم يقتصرون في هذا البحث بتينك اللفظتين لا غير - حجة، تخدم نتيجة من قبيل لا مبرر لادّعاءك.

فكّل قول منفي من أقوال ابن أبي حديد حجة لإقناع مناظره بالعدول عن رأيه، وكما قيل في الاستفهام من أنّه حججا بالقصد التلميح، فكذلك يقال هنا عن النفي إذ يقصد المحاجج تقرير الحجج بالتلميح، عكس الإثبات حيث قرّرها بالتصريح.

انطلاقاً من نموذجنا النقدي الفلك الدائر على المثل السائر، حاولنا في هذا المبحث تحليل بعض ما جاء فيه، قصد الكشف عن بعض الآليات اللغوية الحجاجية الموظفة فيه كالروابط والعوامل الحجاجية والسلم الحجاجي وبعض الأفعال اللغوية الملائمة لطبيعة

الحجاج النقدي، مع بيان الغاية من توظيفها فرأينا أنها ترتب الحجج وتنظّمها وتساهم في توجيهها نحو المقاصد المرغوبة، كما تبرز الخلفية الثقافية والمعرفية للمتناظرين (ابن الأثير و ابن أبي حديد)، تلك الثقافة الموسوعية (الدين، الأدب، الشعر النحو...) التي مكنتهما من الخوض في مختلف المواضيع والاستدلال على ما ذهبوا إليه بمختلف الآليات المؤثرة في المتلقي رغم أنّ العلاقة بينهما بنيت على النقص، ممّا يفسّر أثر المعرفة المشتركة و الظروف الاجتماعية في توجيه الخطاب و استمراره.

خاتمة

كشفت لنا تناولنا لهذا الموضوع (الحجاج في كتب ال ردود النقدية) أنّ الحجاج ظهر بمعان مختلفة كالجدل والحوار والمناظرة وهي معان وإن اختلفت تسمياتها فإنها تخدم غاية واحدة تتلخص في محاولة التأثير في المتلقي قصد إقناعه، وبالتالي تحقيق المتكلم مقاصده وأهدافه.

كما أنّ الحجاج موجود حيثما وجدت اللّغة وموظّف في كلّ المجالات، وتعدّ كتب الردود النّقدية والمناظرات والمساجلات في الكثير من نصوصها نماذجاً حجاجية . وقد حاولنا محاوره كتاب " الفلك الدائر على المثل السائر، الذي يعدّ مدونة تراثية موسوعية تحمل في طياتها مختلف الأوجه الفكرية (النقد والبلاغة، النحو والشعر). معتمدين المنهج التداولي الذي يهتم باللّغة عند استعمالها، مع مراعاة المتكلمين (المخاطب و المخاطب)، والسّياق (الحال و المقام) حيث سمح لنا بما يأتي :

* إعادة النظر في تراثنا النّقدية فلاحظنا أنّ هذه القواعد والأسس موجودة فيه أصلاً لكنّها بقيت مجرد مفاهيم غير ممنهجة .

* قراءة هذا الموروث النّقدية قراءة تتجاوز المفهوم السّلبى السابق للنقد - (على أنّه تجريح أو حط من قيمة العمل المبدع وصاحبه) - الذي جعل الكثيرين يعزفون عنه وينفرون منه .

* معرفة كيفية توالد الردود النّقدية من بعضها، فالردّ النّقدية وليد النقد الأول ودليل على حدوث عملية التأثير، ممّا يمكّن الخطاب من التكوثر على مستوى اللّغة: فالمتناظران رغم كونهما ذاتين حقيقتين، إلاّ أنّهما يستطيعان تجريد نوات أخرى اعتبارية بحسب مقتضى الحال و مراعاة للمقام .

وعند تحليلنا لبعض النماذج من المدونة لاسيما البلاغية واللّغوية، وجدنا ابن أبي حديد يركّز دائماً على تقديم النتيجة ثم يدرج الحجج المدعمة لها ولكي يجعل خطابه مؤثراً اعتمد الخطاب الحجاجي البلاغي لأنّ المجاز و اللبس يكسبان الحجاج قوة حجاجية عالية (فوق الإبطال) وقد بيّنا ذلك من خلال تناول بعض النماذج في باب التمثيل

الاستعارة مثلا، فاتّضح أنّ الوسائل البلاغية ليست من باب الزخرف القولي فقط كما كان ينظر إليها سابقا، ولكنها ذات وظيفة حجاجية تساهم في كسب مكانة معيّنة بين القراء. إضافة إلى توظيف المقام كآلية حجاجية وكذا الشاهد الذي اعتمده ابن أبي حديد بنسبة أعلى وذلك حسب ما تقتضيه الطبيعة النقدية، إذ يعدّ حجة جاهزة ذات مصداقية كبيرة، كما خلصنا إلى نتيجة أخرى وهي أنّ الروابط بغضّ النظر عن وظيفتها النحوية أو البلاغية، تساهم في انسجام الخطاب حجاجيا و توجيهه وجهة قويّة. دون أن ننسى الآليات اللغوية الأخرى كالأفعال اللغوية ومالها من أثر في تقوية الحجج و توجيهها وكذا التدرج في الحجج لبلوغ النتيجة والقصد أو ما يسمّى بالسلم الحجاجي و دوره في بيان أثر التدرج على التأثير في المتلقي . ونختم عملنا هذا بما ذكرناه في بدايته وهو أنّ الحجاج بقدر ما هو مألوف كممارسة وحاضر في أنشطتنا اليومية، بقدر ما هو منفلت ومستعص على الإحاطة والتعريف لذا حاولنا قدر المستطاع الإلمام به والاقتراب من لبّه، تاركين ما فاتنا لأبحاث أعمق وأشمل .

وفي الأخير نسأل الله التوفيق.

قائمة المصادر

والمرجع

قائمة المصادر و المراجع :

* القرآن الكريم.

- 1 - إبراهيم إبراهيم بركات، الإبهام والمبهمات في النحو العربي، دار الوفاء المنصورة، مصر، 1408 هـ / 1987 .
- 2- ابن أبي حديد (عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين) الفلك الدائر على المثل السائر - حقه و علق عليه - أحمد الحوفي و بدوي طبانة - دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة - مصر.
- 3- ابن الأثير (ضياء الدين) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر حقه وعلق عليه أحمد الحوفي و بدوي طبانة - دار نهضة مصر للطبع و النشر - الفجالة - مصر .
- 4 - بالطاهر (بن عيسى) البلاغة العربية، مقدمات وتطبيقات، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت، لبنان، ط1، 2008 .
- 5- الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر) - البيان و التبيين- تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر، دط ، دت .
- 6- الجرجاني (عبد القاهر) - أسرار البلاغة في علم البيان - تحقيق عبد الحميد هنداوي - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001 .
- 7- الجرجاني (الشريف علي بن محمد) - التعريفات - تحقيق إبراهيم الأبياري دار الريان للتراث، دط، دت .
- 8- الحباشة (صابر) - التداولية والحجاج - مداخل ونصوص - صفحات للطباعة سورية ط1، 2008 .
- 9- حسن (عباس) - النحو الوافي - دار المعارف القاهرة، ط6، ج1، 1979 .

- 10- الديردي (سامية) - الحجاج في القديم من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري عالم الكتب، الأردن، ط1، 5، 200.
- 11 - الرّماني (أبو الحسن علي بن عيسى) - معاني الحروف - تحقيق عرفان بن سليم العشا حسونة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003 .
- 12 - روبول (آن) وموشلير (جاك) - التداولية اليوم - ترجمة سيف الدين دغفوس و محمدّ الشيباني، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2003 .
- 13 - الزمخشري (أبو القاسم جار الله) - الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجه التّأويل - تحقيق الشريف علي بن محمد علي السيد وأحمد بن محمد الإسكندري - دار الفكر - بيروت، لبنان، ج1، دط، 2006 .
- 14 - سيرفوني (جان) - الملفوظية - ترجمة قاسم المقداد، اتحاد الكتاب العرب دط، 1998 .
- 15 - السّكاكي (أبو يعقوب يوسف) - مفتاح العلوم - تحقيق : نعيم زرزو، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1983 .
- 16 - الشهري (عبد الهادي بن ظافر) - استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، 2004 .
- 17 - الصّديق (حسين) - المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، الشركة المصرية العالمية، لوجمان، مصر، ط1، 2000 .
- 18 - صمّود (حمودي) - أهمّ نظريات الحجاج في النقايلد الغربية من أرسطو إلى اليوم - منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس 1998 .
- 19 - صولة (عبد الله) - الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007 .

- 20- طروس (محمد) - النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية
واللسانية - دار الثقافة، المغرب، ط1، 2001 .
- 21 - عبد الرحمان (طه) - في أصول الحوار وتجديد علم الكلام - المركز الثقافي
العربي، ط2، 2000 .
- 22- عبد الرحمان (طه) - اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي - المركز الثقافي
العربي، ط1، 1998 .
- 23 - عبد المجيد (جميل) - البلاغة والاتصال - دار غريب، مصر، دت، 2000 .
- 24- العسكري (أبو هلال)، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو
الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2006 .
- 25 - عشير (عبد السلام) - عندما نتواصل نغيّر - (مقاربة تداولية معرفية لآليات
التواصل و الحجاج)، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2006 .
- 26 - العزاوي (أبو بكر) - اللّغة و الحجاج - العمدة في الطّبع، المغرب، ط1، 2006
- 27 - العزاوي (أبو بكر) - الخطاب و الحجاج - الأحمديّة للنشر، ط1، 2007 .
- 28 - العمري (محمد) - في بلاغة الخطاب الاقناعي - (مدخل نظري و تطبيقي
لدراسة الخطابة العربية)، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، 2002 .
- 29 - العمري (محمد) - البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق
المغرب، ط1، 2005 .
- 30- فروخ (عمر) - تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح
العثماني، دار العلم للملايين، بيروت، ج3، ط2، 1984 .

31- القرطاجني (حازم) - منهاج البلغاء و سراج الأدباء - تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، دط، 1966 .

32 -القزويني (أبو العلاء جلال الدين الخطيب)، الإيضاح في علوم البلاغة، راجعه عمار بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، دط، دت.

33- المرادي (الحسن بن القاسم) - الجنى الداني في حروف المعاني - تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992

34 - النّقاري (حمّو) - التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه - منشورات كليّة الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، ندوات ومناظرات رقم 134، ط1، 2006 .

المجلات :

الولي (محمد) - من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات - مجلة فكرو نقد، ع 8 .1998

قائمة المعاجم باللّغة العربية :

1 - أنيس (إبراهيم) و زملاؤه - المعجم الوسيط، دار المعارف، مصر، ط 2، ج 2 . 1973

2 - باتريك شارود ودومينيك منغنو - معجم تحليل الخطاب - ترجمة عبد القادر المهيري وحمّادي صمود، دار سيناتر، تونس، 2008 .

3 - ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين بن مكرم) - لسان العرب - دار صادر بيروت ط3، مج 14، 2004 .

4 - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن مكرم) - لسان العرب - دار صادر بيروت ط3، مج 04، 2004 .

باللغة الأجنبية :

1- Cambridge Advanced learners - Dictionary Cambridge university press 2nd pub – 2004 .

2 – Le grand Robert – Dictionnaire de la langue française 1^{ère} rédaction Paris – 1989 .